تمثيل كرامة يقدم

القصة الروسية الرائعة

التي فازت بجائزة ستالين في الادب السوفيتي

الحب والخبز

تأليف

صفوة مختارة من خيرة ادباء الروس الثوريين

مكسيم جوركي . بوشكين . تشيخوف

تولستوي . زوشنكو . بيروف

الطبعة الاولى

الاهداء

الى اولئك الذين آمنوا بأن الحب منحة السماء للبشر

فحرروا وصدروا الحب من القيود والشرائع .

والى الذين آمنوا ان الخبز منحة الارض للبشر فنالوا

الخبز بالسلام لا في المطامع .

اهدي كتاب الحب والخبز

عن زحلة لبنان في ١/٦/٩٥٤

نسيب بكر

المؤلفات التي صدرت عن دار الاهرام للطباعة والنشر والتوزيع

تأليف الاديب اللبناني المعروف الاستاذ

نبيل كرامة

بائعة الغرام: اشهر قصة عاطفية ظهرت هذا العام أعيد طبعها ثلاث مرات وترجمت الى الفرنسية . قصة محام شاب وامرأة طريدة يحكمها القضاء ويبررها القدر .

١١٢ صفحة من الحجم الكبير والطباعة الانيقة سعر ١٠٠ غ.س

درب الهوى : قصة امرأة عاشت للحب واضاعت الدنيا ، قصة واقعية جرت حوادثها على سفح جبل صنين ولم يزل معظم ابطالها على قيد الحياة

تقع في ١٦٠ صفحة من الحجم الكبير والطباعة الانيقة سعر ١٥٠ غ

الفلاح المتفرنج : مسرحية ساخرة باللغة العامية . فهي دعوة صادقة الى الارض المحببة ، وصراع عنيف ضد الادعاء الفارغ والمدنية الفاسدة .

تقع في ٨٠ صفحة من الحجم الكبير والطباعة الانيقة سعر ٧٥ غ

غرام وانتقام : قصة ام حائرة تبحث عن ثمرة احشائها بعد ان تخلت عنها في لحظات مجونها واغرائها .

تقع في ١٢٠ صفحة من الحجم الكبير والطباعة الانيقة سعر ١٠٠ غ

الرغيف الاحمر قصة الرغيف المبلول بدمع العين ودم القلب ، قصة من طراز غير عادي كتبت احرفها من نار وعبرت باسلوب من نور .

تقع في ٢٢٤ صفحة من الحجم الكبير مزدانة بالرسوم سعر ٢٠٠ غ

غرام من نار: قصة غرام عنيف ارفع من حدود السماء ، قصة الحب العاصف ونكران الذات .

تقع في ١١٢ صفحة من الحجم الكبير والطباعة الانيقة سعر ١٠٠ غ

اصدار مختلف : قصة ليست ككل قصة ، لا يقدر وصفها الا كل من يقرأها :

تقع في ١١٢ صفحة من الحجم الكبير والطباعة الانيقة سعر ١٠٠ غ

الكتب المعربة بقلم الاديب اللبناني المعروف الاستاذ نبيل كرامة .

عذاب الغربة الاولى: قصة مترجمة عن المؤلف الفرنسي الكبير الفريد موشار وهي التحفة الخالدة التي فازت بست جوائز عالمية ، قصة الصراع بين التربية الحديثة والتربية القديمة ومعالجة اختلاط الجنسين منذ الصغر .

تقع في ٣٠٠ صفحة من الحجم الكبير والطباعة الانيقة مزدانة ب ٢٤ رسما من اجمل مشاهد الفيلم بسعر ٢٥٠ غ

الام : فخر انتاج الدار لهذا العام مترجمة عن الادب الروسي لامام كتاب السوفيت الواقعيين مكسيم جوركي، وهي قصة الايمان بالنصر النهائي الذي ستحرزه القيم الانسانية . كتبها جوركي في حمى النضال الثوري في وقت ابتدأ اليأس يدب الى قلوب الكثيرين ، وبهت الايمان في النفوس ، وانارت افق المستقبل وجندت بمنتال القوى الحاكمة ، وكان لها ما اراد كاتبها نفدت طبعتها الاولى والطبعة الثانية قيد الطبع .

تقع في ٣٠٠ صفحة من الحجم الكبير والطباعة الانيقة مزدانة ب ٢٤ رسماً من خيرة مشاهد الرواية بسعر ٢٥٠ غ .

ذهب مع الريح قصة امرأة ذات مطامع وقعت حوادثها ابان الحرب الاهلية الاميركية من تأليف الكاتبة الكبيرة مرغريت ميتشل، اخرجت هذه القصة الى السينما فكانت ولم تزل فخر انتاج هوليود ونالت جائزة الاوسكار الدولي .

تقع في ٢٢٤ صفحة من الحجم الكبير والطباعة الانيقة مزدانة ب ٢٤ رسما من اجمل مشاهد الفيلم بسعر ٢٠٠ غرش .

الحب والفن : مجموعة اقاصيص تأليف صفوة مختارة من ادباء الروس الثوريين فاز كتابها بجائزة ستالين في الادب السوفيتي .

تقع في ١٢٠ صفحة من الحجم الكبير والطباعة الانيقة بسعر ١٠٠ غ

المشردون : تأليف الكاتب الثوري الكبير مكسيم جوركي ، فهي قصة الانسانية المعذبة ، قصة العمال والجياع والعراة المشردين في الارض

تقع في ١٢٤ صفحة من الحجم الكبير والطباعة الانيقة بسعر ١٠٠ غ .

— ١ —

عب اقوى من الموت

عن مكسيم جوركي

في زمن مضى كان يحكم بلاد القرم ، امير يدعى « مسيلمة » رزقه الله ولداً أسماه « طليق » .

بهذه العبارة ، استهل شحاذ تتري ضرير حديثه ، وهو يستند الى جذع شجرة باسقة ، اعتاد ان يستظل بأفنانها كلما التف حوله عشاق اخباره ، يصيخون السمع لرواية اساطيره ، وكان معظم هذه الاساطير يدور حول تاريخ القرم الحافل بكنوز من الاخبار .

كان المستمعون الى اساطيره في هذه المرة ، جماعة من قطاع الطرق ، وقد جلسوا امامه على بعض الحجارة ، ووضعوا على الاحجار قلانسهم المزركشة المرصعة بالذهب والجواهر الثمينة ، التي كانوا استولوا عليها من بعض قصور الأثرياء .

وكانت الشمس تسعى الى الغروب ، وتلم خيوطها الذهبية عن الطبيعة لتواريها وراء اليم الماجوج ، وقد نثرت بعض أشعتها الحمراء على اشجار الغابة المكتسية بحلة خضراء ، وسرت الرياح تعصف بين افنان الشجر ، ويرتفع بالكون الهادىء صوت حفيف اوراقها ، وخرير مياه الجداول الرقراقة المنسابة ، وهي تلاطم الصخور .

ومن بين تلك الاصوات ، كان صوت المتسول الراوي يتصاعد

هادئاً متماوجاً ، أما قسمات محياه التي رسم الزمن عليهـــا خطوطه ، فكانت تبدو قاسية ، ولكنها لا تخلو من الشعور بالثقة والاطمئنان ، وكانت عباراته تنساب بلباقة وطلاوة وتدخل آذان المستمعين دون استئذان ، فتوقظ في أرواحهم الأحاسيس وفي أجسادهم المشاعر ، لما تصور لهم من روائع الصور الحية عن الماضي البعيد .

وابتدأ الضرير حديثه : كان الامير مسيلمة قد تقدمت به السنون وهدمت مراحل الازمان البعض من قواه الجسدية ، ولكن قلبه كان لا يزال ينبض بعزم الشباب ، وظل قصره حافلاً بعدد كبير من الجواري الحسان ، على غرار ملوك العرب القدماء .

كانت الجواري تحببنه ، لما كان يملك من قوة ، وعزم وحيوية ونشاط ، ومعظم النساء لا يحببن إلا من يبعث الدفء الى القلوب في كلماته ، والوقيد اللافح الى الأجساد في مداعباته ، وان وخط الشيب شعره ، وخطط الزمن في قسمات الوجه اسطره . إذ ان ميول النساء في قوى الرجل وحيويته ، لا في جمال البشرة ونعومـــة الجسد ، وتورد الوجنتين .

كان معظم الجواري يملن بعواطفهن نحو الامير غير انه كان يؤثر عليهن جميعاً جارية « قوزاقية » وقعت اسيرة غزاوته في سهول « الدينبر » ووقعت اسيرة غرامه من الليلة الاولى التي ذاقت فيهـــا ساعات الوصال الدافئة الى قربه ، فبادلته الحب وتفانت في غرامه حتى التلاشي والاهراق ، فمال قلب الامير الى غانيتـه وتناسى جواريه ، وعددهن يربو على الثلاثماية جارية ، وخصها الامير بقلبـــه وحبه ، وبلياليه الرائعة ، الزاخرة بالاغراء والمجون .

وكان اكثر جواري القصر كزهور الربيع النضرة الاينـــاع تتهلل وجوههن المتألقة بالضياء ، وحيث يبتسمن تحل البهجة والحبور

وبقي الأمير ، رغم تعلقه بجاريته القوزاقية المفضلة ، يجالس جواريه يشاربهن ويراقصهن ، ولكنه كان يخصص بالدعوة الى مخدعه القوزاقية الحسناء

فاقامها في قصر يشرف على البحر ، وأعدّ لها فيه كل مباهج الحياة من شهي المنظور جوهراً وذهباً ، ولذيذ المسموع غناءً ساحراً وحنان أوتار ، وقد أحضر لها من اقاصي المعمور كل طيور غريدة ، وجمع لها من ينع الخمايل والمروج أفضل الأزاهير العابقة بالعطر والريحان ، وفوق كل ذلك منحها قلبه الدافيء ، ووقيد جسده اللافح بالغرام والحنان .

كان الامير ينفرد بجاريته الحسناء أياماً وليالي فيغفو على صدرها الدافق بالحنان ، ويصحو على فجر صباها الريان ، لا شاغل يلهو البال ولا عزول يعكر ساعات الوصال السعيدة . فالأمير مطمئن على مملكته المترامية الاطراف ، يثق ويعتمد على ولده طليق ، من انه لن يخفض الرأس ابداً ، وسيضيف الى ملكه ممالك عديدة مثلما أبقى له الاباء والأجداد من تراث عظيم .

ان ولده صلب العود ، قوي الساعد ، غزير البيان ، فهو ولا ريب سيتمكن من غزو الحدود الروسية ، فيأتي بالسبايا والاسلاب من العرب والاتراب ، واذا ما عاد مظفراً بالسبايا والغنائم ، فان سائر الرعية سيأتمرون بأمره على غرار أجداده . ان معظم الرعايا ذوو عزم واقدام ، ولا يذعنون الا للفارس القوي المراس ، وان ولده طليق يتحلى بجميع هذه الصفات والمزايا الحميدة .

وكلما كان يعود طليق من غزواته ، كان الامير مسيلمة يقيم له الافراح ، والحفلات الخاصة لاكرامه ، في صالة قصره الرحب ، يدعو اليها صفوة الرعايا وابطال رجالها ، فتدور كأس الراح على كل

شفة ، وتقام المباراة في اصابة عيون الاسرى بالسهام ليبرهنوا عن عزم سواعدهم في اصابة المرمى . وكان سهم ولي العهد أشد الأسهم اصابة ، لأنه كان يملك العضل القوي والساعد المتين .

وكان قلب الامير مسيلمة يرتقص طرباً بمجد ولده البطـــل ، فيخيل له المستقبل الزاخر بالمجد والعظمة الذي ينتظر وحيده بعد ان يذوي عود الأب ويجف عنقوده .

وفي احدى حفلات التكريم والاجلال ، وخلال احتدام المهرجان والاصابات المحكمة ، وقف الامير مسيلمة شامخ الرأس ، مرفوع الجبين وقد اجتاحت قلبه موجة قوية من التباهي والخيلاء بوحيده الذي أنعم الله به عليه ، ليكون قرة عيني الأب ، وصفوة رجال المملكة ، ووريث العرش المنتظر الذي سيصونه بحد سيفه بعد ان يذوق الأب حتفه ويمسي جسده طعماً للدود . ونادى الامير مسيلمة ولده وقال له : اطلب يا طليق ، كل ما يبدو امام ناظريك فهو ملك لك .

وصمت الامير ، ولكنه رأى ما التمع بعيني ولده من اشعـاع غريب ، كأشعة عيني النسر المحلق فوق قمم الجبال ، وقال بحياء :

ـ يا مليكي وأبي . إذا شئت اكرامي والانعام عليّ ، هبني ما يطفيء لهيب قلبي المشتعل حباً وغراماً .

ـ اطلب ما تشتهي يا ولدي فهو ملك لك .

ـ إذن . هبني جاريتك الاسيرة القوزاقية الحسناء .

وخيم الصمت المطبق على الامير مسيلمة ، وشعر ان الارض تميد تحت قدميه ، وقد استعرت في قلب جذوة النار فاضطرم لهبها وكادت تلتهم صدر الامير الكبير وتنزع منه كل أناة وصبر ، ولكنه تمالك نفسه وهدأ بعض ما انتابه من اضطراب عنيف ، ولملم قواه التي تلاشت على أثر الطلب ، ثم همس بانفاس متقطعة :

ـ انها لك ، ولكن ، فليكن ذلك عقب انتهاء المهرجان .

وغمرت قلب طليق موجة من البهجة والحبور ، واستخفه الطرب والتمع في عينيه اشعاع متألق الوميض اشد ما كان عليه سابقاً ، واستقامت قامته كصناديد الرجال ، وافتر ثغره عن ابتسامة عريضة ، تدل على ما اعتمل في قلبه من مشاعر الغبطة والسرور ، وقال :

ـ انني اقدر عظمة هبتك لي يا مليكي ويا والدي . ولئن كنت ولدك ، ولكني فخور بان اكون عبدك ايضاً لأسفك في سبيل الذود عنك آخر قطرة من دمي ، وان كان المسيح فادي البشر قد مات مرة من اجل البشر ، فأنني اود ان اموت من اجلك عشرين مرة .

وانخفض رأس الامير مسيلمة المكلل بالشيب ، والذي لم ينخفض في دنياه ابداً ، لما ورثه من رفعة المجد ، ومن مآثر بطولات اجداده ثم همس بصوت خافت هادىء : لا أود شيئاً !.. لا أود شيئاً !..

وعقب انتهاء المهرجان مباشرة ، عاد الاب والابن معاً الى قصرهما وكانا يسيران جنباً الى جنب وقد عقد الصمت لسانها ، وكانت حجب السحب الملبدة على صفحة السماء تغرب اشعاع البدر وتستر نجومها ، وبقي الصمت سائداً فيما بينهما ، الى ان قطع الاب حبل هذا السكون العميق فقال : أرى ، انني كلما تخطيت مراحل الزمن ، اشعر ان الموت يدنو مني باندفاع عجيب ، وان قلبي الذي كانت جذوة نيرانه تتوقد فيه ، امسى بعد اليوم لا يخفق الا بهوادة ، وناره اخذت في الخمود ، وقد كان للحظات مضت يستمد القوى والحياة من حب تلك الجارية انقوزاقية . ألا قل لي يا طليق ، الا تستعيض عن تلك الجارية التي اصبو اليها واحبها بمائة جارية سواها ؟..

فلم يحر الابن جواباً ، واسترسل الاب في حديثه يقول :

ـ تصعب عليّ الحياة يا ولدي ، وأنا أتخيل ان المرأة التي وهبتها

قلبي وحبي تشاركك مضجعك ، وتضمها بين ذراعيك ، وتتبادلان معاً قبلات الهوى والغرام بتذوق وحنان . انت وانا يا ابني لسنا في نظر المرأة مجرد اب وولده ، وانما نحن بنظرها رجلان ، ولقد كنت اتمنى أن ارى الكثير من جراح جسدي تتدفق منها آخر قطرات دمي وحياتي ، على ان اسمع الليلة منك هذا الطلب وتلك الامنية .

وظل طليق على صمته ، الى ان وصلا باب مخدع الجارية الحسناء وكلاهما مطبق الفم ، مقطب الجبين تتنازعها الافكار الصامتة ، ورأسها بانحناء طويل كالعبد الذليل . ووقفا على عتبة الباب ، وكان الظلام يلفها ، والرياح تئن انين المصروع العليل ، ثم قال طليق بصوت خفيف النبرات ، رزين العبارات : ان حبها قد ملك فؤادي منذ زمن سحيق يا والدي .

ـ كنت اعلم ذلك ، ولكنها لم تبادلك هذا الحب .

ـ وهذا ما كان يزيد في قلبي جراحه ، وطالما حرّم طيفها اجفاني لذيذ الرقاد ، من جراء ما انساقت خواطري حول غرامها وانا اعلل القلب بمنالها ، الى ان ملني الصبر وما حظيت بهواها . وصمت طليق ، وصعدت من صدره آهة عميقة ، ثم تابع حديثه وقال : لقد صدق الذين قالوا : « ان المرأة شر لا غنى للرجل عنه » . فاذا كانت مليحة حسناء ، واغرى جمالها غيرك ، فحتما ستحيل حياتك الى جحيم ، وتقلبك على نار الغيرة والظنون ، وان كانت ضعيفة الوجه قبيحته ، دفعتك دمامتها الى حسد الآخرين على نسائهم ، وان كانت بين بين ، ليست هي بالجميلة ولا الدميمة كانت حياتك معها تنغيصاً من شكها في حبك وشكك في استئثارها بقلبك .

وقال الامير : ليست الحكمة والبلاغة دواء لعلاج القلوب .

وقال طليق : كلانا يا والدي يرثي لحالة الآخر ويشفق عليه .

ورفع الأب رأسه بحزن أليم .

ونطق الابن بحزم وتصميم : فلنتخلص كلانا منها اذن .

ـ وكيف ؟..

ـ فلنقتلها .

ومرت هذه الكلمة برأس الاب ، فارتعشت بجسده كل عضلة ، وارتجفت شفتاه وهو يقول : اذن فانت تحب نفسك اكثر ما تحبها وتحبني ؟ ..

وهمس الابن بذل وقال : حقاً ما تقول ، وانت كذلك يا ابتي .

وتمتم الاب بحزن اليم : حقاً . وأنا كذلك يا ابني .

وقال طليق : اذن يجب ان تذوق الجارية حتفها .

وقال الاب : من العسير عليّ يا طليق ان أهبها للت ، من العسير جداً عليّ يا ولدي .

وقال الابن : ومن العسير علي انا أيضاً الصبر وقد ملكني ، والألم وقد قتلني . اواه يا ابتي لا استطيع . لا استطيع فرحمة بقلبي الجريح اوهبها لي !..

وصمت الاب قليلا ، وضاقت به السبل فقال بألم :

ـ اذن فلنقتلها !..

ـ وكيف يتم لنا ذلك ؟..

ـ يلقى بها عن الصخرة العالية الى لجة البحر .

ـ فليكن ذلك . سنلقي بها في لجة البحر .

ودفعا باب الغرفة ، وعبرا معاً الى المخدع ، وكانت الجارية مستغرقة في سبات عميق ، ممددة الجسد البض النضير على فراش وثير من الحرير والديباج ، وهي مرخية الشعر الكثيف اللين على الوسائد الاطلسية . فكانت تمثل جنح غراب على صفحة من الثلوج .

فوقفا امام سريرها يحدقان بعيون ملتمعة الضياء تنذر بشرّ منتظر وأذى لا بدّ آت . ولكن الامير حوّل نظراته عن المشهد الدامي ، واطرق برأسه نحوَ الارض ، وغلبت الدموع عينيه فتناثرت على مقلتيه وشاربيه ولحيته وكانت كمثل حبات من اللؤلؤ .

ولم يستطع طليق كبح جماحه فغلبته الآهات والبلوى ، وارتفع صوت صرير اسنانه ، فاستفاقت الجارية على هذه الجلبة وفتحت عينيها فالتمعا كبريق الصباح ، وحين رأت الامير اكتست وجنتاها بحمرة متوردة كأشعة الفجر حين بزوغه ، ومدت نحو اميرها شفتين تتلظيان بحمى الشهوات وهمست : تعال قبلني !

وكادت عزائم الامير مسيلمة تخور ، وهم بالأقتراب ، ولكنه تمالك جأشه وقال : هلمي !.. لا بدّ لك من الذهاب معنا .

واستدارت الجارية بنظراتها عبر الغرفة ، فوقعت على وجه طليق وتبينت ما يقطر من عيني نسرها القوي من دموع ، وكانت الجارية على كثير من الذكاء ، فأدركت بالحال حقيقة حضورهما اليها معاً ، فقالت : سأذهب برفقتكما . لا لك ولا له . أليس هذا ما تم الرأي بينكما عليه ؟..

وخرج الثلاثة من الغرفة في صمت وهدوء ، واتجهوا نحو البحر وتلاشت قوى الجارية ، وضعفت عن المسير ، ولكنها استجمعت كبرياء نفسها ، التي كادت تخور وتتلاشى ، وتمنعت عن مكاشفتها في أمرها ، ولكن الاب لاحظ بطء خطواتها ، فقال يسألها : هل تملكت مشاعرك المخاوف !..

فالتمعت عيناها ، واشارت الى قدميها الدامية ، واقترب طليق يود حملها بين يديه ، ولكنها تقدمت نحو الاب ، فحملها الاخير في بساطة ويسر ، كما لو كان يرفع بين يديه ريشة طير . وانتشر شعر

الجارية الحسناء فمدت يدها تلثمه وتستر به وجهها . واستمر المسير بخطوات حثيثة ، وكان الاب يسير في المقدمة .

وقال طليق : أيسمح والدي ان أتقدمه في المسير ؟ اكاد افقد شعوري ، وانا اسير وراءك ، ويكاد الشيطان يغرر بي ويدفعني لأخمد خنجري في ظهرك .

وقال الاب : لك ما ترغب يا طليق ، وقد عفوت عنك، وغفرت لك تلك الامنية التي جالت في رأسك . لأنني اعرف ما هو الحب .

واخيراً بدا البحر سحيقاً تحتها ، إذ ان الصخرة كانت بليغة الارتفاع ، وظهر البحر بجلباب من سواد غـــير متناهي الاتساع ، وكان المد والجزر يغنيان اناشيدهما الرهيبة ، وكأنهما يرددان الحان الجنائز ، في تلك الليلة الرهيبة اللاحفة الصقيع .

وانحنى رأس الشيخ يودع جاريته ، ومعبودة فؤاده . فأشبعها لثماً وتقبيلاً ، ثم همس قائلاً : وداعاً !..

ونظرت الجارية الحسناء نحو البحر دون ان تملكها الجزع والخوف وضمت يديها الى صدرها وقالت : اقذف بي الى البحر !..

وعاد الامير يقبلها ، ومدّ طليق اليها يده ، كي يتولى مهمة إلقائها فكان الاب هو السبّاق الى هذه ، وألقى بها من فوق الصخرة العالية .

وكانت اصوات المد والجزر في اصطراع ، فلم يصل الى اذنيها اي صوت من الشهيدة ، وحدق الامير الاب الى صفحة اليم اللاجوجة فلم يتبين شيئاً . وادار نظره فيما حوله ، فلم يقع الا على ظلام دامس وليل كثيف الغيوم ملبد بالسحاب .

وكان طليق يقف الى قربه ، وقد حجب وجهه بين يديه ، يخلد الى السكينة ، ضعيف اللهاث ، لا انفاس تعلو ولا اضطراب يعرو وكأنه قطعة قدّت من جمود تلك الصخرة القاسية .

وحين التقت عينا الاب الحائرة ، بعيني الابن الغائرة قال طليق : هيا بنا يا والدي لنعود ادراجنا من حيث اتينا !..

واجاب الامير : مهلا واصغ يا ولدي !..

وظن طليق انه سيستمع الى حديث والده ، ولكنه لم يسمع ما كان يتوقع سماعه بل تسرب الى اذنيه في هدأة السكون فحيح الرياح الباردة الآتية من لجة البحر العميق ، وبعد لحظات قليلة ، عاد الابن يدعو والده ويقول : هيا بنا يا والدي لنعود الى القصر !.

واجاب الاب بحزن مكتوم : انتظر لحظة اخرى !.

وبين فترات متقطعة اعاد الابن دعوة والده يحثه الى العودة . وابى الامير مسيلمة ان يغادر المكان الذي فقد فيه كل امل ورجاء له من السعادة ، ولكن لكل شيء نهاية وحدود . وقطب طليق جبينه وقال : هيا بنا لنعود !..

وعادا ، انما سرعان ما كف الامير عن المسير وهتف :

ـ ولكن . لماذا اعود يا طليق ؟ . . والى اين اعود ؟ .. ولم يبق لحياتي بعدها اي معنى ، ولما اعيش وقد كنت أحيا من اجلها ؟ لقد فقدت من اذاقتني حلاوة الحب والوصال من بين شفتيها ، وبثت بي القوة والعزم من حنانها وحيويتها ، ولذا فقد افتقدت بفقدها كل امل لي بالحياة . واذا ما افتقد المرء من يحبه ، فمن الحماقة ان يعيش لأنه يفتقد بذلك سائر حيوات هذه الدنيا .

وقال طليق : لك السلطة والمجد الوطيد ، والغنى والترف الوثير والجاه والحسب الرفيع ، أبعد هذا تقول اذاك افتقدت جميع حيوات الحياة ؟..

وقال الاب : امنحني قبلة واحدة من شفتيها ، اهبك كل ما تبقى من عمري المديد ، لا حب الا حب المرأة ، فمن فقدها وملك كل شيء ، فقد خسر وخسر كل شي . . . وداعاً ! . . وداعاً

يا ولدي ، كان الله في عونك .

وعاد الامير الى تلك الصخرة ، صخرة الموت وموئل المنبوذين المشردين .

وصاح طليق : والدي !.. والدي !..

ولكنه لم يستطع اتمام صياحه ، اذ تملك فؤاده الجزع الرهيب ، وهو الذي لم يجزع في حياته ابداً ، ولكنه شاهد والده وهو يستقبل الموت ويبتسم بكل شجاعة وسعادة ، وقد القى بنفسه الى لجة البحر الصاخب ، حيث هناك دفن منذ لحظات الهوى والشباب ، فلحق بها علّه يجد لنفسه هنالك الراحة والسلام الابدي ! حيث لا عزول ولا رقيب .

وما استطاع طليق ان يتقدم نحو صخرة الموت ولا خطوة واحدة . وما تسرب الى اذنيه اي صوت يتصاعد من المنتحر شهيد الغرام والاخلاص ، بل اختلطت في مسمعه قعقعة امواج البحر المتلاطمة ، وصوت تحطيمها على الصخور القاسية .

وتنافرت الدموع من عيني الابن ، وتقطعت انفاسه وهو يقول :

– ربي !.. هبني قلباً قوياً كقلب والدي .

وعاد ادراجه بخطى ثقيلة ، وقد لف ظلام الليل الدامس بجناحيه ذاك الشبح الهزيل الحزين .

وكانت همسات اليمة تخترق سكون ذاك الظلام وهي همسات طليق وهو يقول : يا لهذا الغرام الجامح ! الذي كان يستعر في حنايا هذا الشيخ ، لقد كان حبه حقاً ، حباً اقوى من الموت .

* * *

وختم الشحاذ التتري الضرير حديث قصته وقال : وهكذا مات الامير مسيلمة ، وحكم بلاد القرم ولده طليق .

وهتف قطاعو الطرق المستمعين : هبنا يا الله قلباً كمثل قلب الامير الشيخ ، وحباً اقوى من الموت ، كحب الامير الجامح .

- ٢ -

بطولة طفل

عن مكسيم جوركي

من العسير عليّ رواية هذه القصة الصغيرة ، لأنها ليست على شيء من الاهمية .

عندما كنت صبياً صغيراً ، تعودت ان اجمع بعض اولاد حيّنا الصغار ، واخرج برفقتهم الى الحقول النامية القريبة من المدينة ، والى الغابة البعيدة قليلاً عنها ، والمرصوفة بالاشجار الباسقة ، لنلعب ونلهو ونقضي ايام الاحاد والاعياد خلال فصلي الصيف والربيع .

وكان الصغار يهللون فرحاً وغبطة بتلك الفرص السعيدة ، التي تتيح لهم الفرار من جو المدينة الخانق ، ومن شوارعها المزدحمة بالسكان والقطارات . وكانت امهات رفاقي يزوّدن اولادهن ببعض ارغفة الخبز والحلوى لهذه المناسبات ، وغالباً ما كنت اتزعم الاصحاب واسير في مقدمتهم كما يسير الراعي امام قطيع من الماشية ، فنخترق شوارع المدينة ، ونجتاز الحقول الى ان نعبر قلب الغابة الكبيرة ، التي كانت تبدو لانظارنا بجمالها الزاهي واخضرار افنان اشجارها الباسقة وبما كان ينبت على ارضها من حشايش سندسية الالوان .

وكنا عادة نعمد الى الرحيل في هذه الرحلات ، قبل بزوغ الفجر ، فنترك المدينة في الساعات التي تقرع فيها نواقيس الكنائس

وتدعو المؤمنين الى تقديم فروض صلوات السحر ؛ فيظل رنينها يدوي في اذاننا الى ان نبعد عن المدينة ؛ ونقطع المسافات الشاسعة ، واقدامنا تطأ التراب الناعم الذي يكسو تلك الدروب الطويلة ، فنلحظ ان خطواتنا تثير وراءها سحباً بليدة من الغبار .

وعند انتصاف النهار ؛ وحين تشتد لفحات الطبيعة الحارة ، يكون التعب قد انهك قوى الرفاق لكثرة ما لعبوا وركضوا وراء بعضهم وكم قفزوا وتسلقوا جذوع الاشجار .. عند ذلك كنا نجتمع عند طرف الغابة لنتناول طعام الظهيرة ، ثم يأوي بعض الرفاق الصغار يضجعون ويرقدون تحت الاشجار يستظلون افنانها الباسقة فترد عنهم بعض لظى حرارة الشمس اللافحة ويغفون.

بينما يتجمع الرفاق الكبار حولي ، راجين أن أروي لهم بعض النكات المستملحة ؛ والنوادر اللطيفة والاقاصيص الجميلة ، وكنت اروي لهم ما يحضرني منها ، واتبادل النقاش معهم فألهو ويلهون ، واثرثر ويثرثرون .

انني ادرك كيف ينخدع الشباب اليافعون في مقدار عملهم ومقدرتهم ، كما وانني ادرك ان النفوس في مثل هذه الفترة من فترات الحياة كيف تكون ممتلئة بحب الخيلاء والتباهي دون ان ترتكز على اصول في الاساس . ولكنني اعترف على الرغم مني لشعوري غالباً ، وخلال هذه الاجتماعات الصغيرة على طرف الغابة ؛ انني اتخطى العقد الثاني من عمري ؛ وان الرفاق المحيطين بي شباب من احكم الرجال وارجحهم عقلا وادراكاً ونضوجاً .

كنا نقف تحت قبة السماء الزرقاء التي لا يحد مداها ، فتلوح لنا سعة تلك الغابة وهي تنتشر امام عيوننا ؛ بما تحتويه من مختلف الالوان ، ويغمر هذا كله السكون والصمت والاستقرار .

وبين الفينة والفينة ، كانت النسيمات العليلة تهب علينا ناعمة بليلة فترى افنان الاشجار تهتز ببطء ، والحشائش النامية تتمايل وتتلوى بهدوء ، ثم يلي ذلك السكون والصمت ، ويغمر الكون نفوسنا بالصفاء والاطمئنان .

ومن حولي كان يجتمع رفاقي الصغار ، الذين تزدخر نفوسهم بالنقاوة والطهر ، وخواطرهم باللطف والايناس ، لقد تجمعوا الاطلاع والنقاش ، يودون معرفة كل شيء ، عن مباهج الحياة ومسراتها ومآسيها المفجعة .

تلك كانت خيرة ايامي السعيدة ، تلك كانت ذكرى اعيادي الحقيقية . وكانت روحي اذ ذاك تجوب الارض المظلمة وتطلع على ما يظلل العالم من شقاء وألم ، فأضفي عليها من صفاء طفولتي ، وبراءة افكاري ، وطهر مشاعري واحاسيسي ، ما يريني نفوس العالم وقد اغتسلت وشفّت قلوبهم عن كل خير ، فيصفو أديم ذاك الكون ويزداد التماع اشعة المحبة ، ويغمر نور السلام سائر العالم .

وفي احد الايام خرجت من المدينة الى الحقول وسط رهط من رفاقي الصغار ، وفي طريقنا التقينا بانسان غريب . وكان هذا الانسان طفلا حافي القدمين يرتدي جلباباً ابلته السنون ، ولم يبقَ عليه غير الاثر . له حاجبان كثيفان شعرهما مدلهم السواد ، وكان نحيف البنية وشعره المشعث يماثل صوف فروة الماعز الاسود .

وكان يجتاح ذاك الصبي الصغير موجة من الاضطراب كمثل من فقد شيئاً ، أو مثل من يقاسي ألماً نفسياً بليغ الاثر . ولعله كان يبكي ويذرف الدمع منذ لحظات خلت . وهذا ما كان يدل على قسمات محياه دلالة بارزة . كان جفنا عينيه متورمتين ومحمرتين وواضحتي التورم والاحمرار في وجه ازرق ينطق باعنف صوت ، ويرسم باجلى بيان

ان صاحبه الاعجف النحيل يضنيه الجوع الشديد .

وعبر الصبي بين شمل الرفاق رغم زحامهم ثم وقف في منتصف الطريق ، وثبت قدميه العاريتين بقوة وعزم في تراب الارض البارد ، بينما فتح شفتيه الزرقاوتين المحيطتين بفم من اجمل الافواه في فزع . وفي اللحظة التالية كان جسده كله قد انتقل الى الرصيف الثاني من الطريق فقد قفز قفزة رشيقة نقلته بسرعة فائقة .

وصاح الرفاق : اقبضوا عليه !.. اقبضوا عليه !.. امسكوا هذا الشريد المنبوذ !.. هذا الشريد الصغير !..

وخيل اليّ انه سيفر من امام رفاقي جزعاً ، وانما ارتسم الهلع على وجهه النحيل ؟ وبرز في عينيه السوداوين الواسعتين ، وارتجفت شفتاه ، ولكنه لم يهرب ، بل وقف وسط الجمع الصاخب المنادي الصارخ وقف مرتفع القامة ، وهو يحاول ان يبرز عضلات وعظام صدره الخشن الجاف ، وراح يطيل بقامته ، بينما شبك كفيه وراء ظهره وفجأة قال بصوت مرتكن هادىء ، لكنه ينطوي على الكثير من الضراعة والاستجداء : أتودون ان اعرض امام انظاركم بعض العابي ؟

وخيل اليّ في البدء ان كلام الصبي البائس لم يكن غير وسيلة للدفاع عن نفسه تجاه ذلك العداء الهاجم الموجه اليه من سائر الرفاق .

وتلقى الرفاق هذا العرض بكثير من البهجة والاهتمام ، وابتعدوا عن الصبي فاسحين له فراغاً شاسعاً ليعرض فيه العابه ، ولم يبقَ من نظرات الازدراء الموجهة اليه ، الا ما ارتسم على وجوه الرفاق الكبار الميالين بطبائعهم الى القسوة والعنف ، وحدقوا به بنظرات مليئة بالشك والريبة ، وقد كان اطفال حينا على اسوأ العلاقات دائماً مع اطفال الاحياء الاخرى ، ويعتدون بتفوقهم وامتيازهم على الجميع ، وما كانوا على وفاق ومحبة ، بل ينكرون على الآخرين كل تفوق وامتياز .

واما الرفاق الصغار . فقد نظروا الى الامر ببساطة وفي كثير

من التساهل والليّن وهتفوا جميعاً في صوت واحد : هيا اعرض علينا العابك التي تعلن عنها !

وابتعد الصبي الجميل النحيل عن السياج ، واحنى جسده الصغير البارز العظام الى الوراء معتمداً باصابع كفيه على الارض ، ثم رفع ساقيه في الهواء ، حتى تمكن من الوقوف على يديه ، وحينئذ رددت كلة : فوق .

ثم بدأ يدور حول نفسه ويتلوى كمن مسه لهب . واخـــذ في تحريك ساقيه وذراعيه بحركات رشيقة وسريعة ، وكان لون بشرته القمحي يبدو للعيان من خلال الثقوب الكثيرة في قميصه وبنطلونه ، كما كانت عظام كتفيه المدببة ، وعظمتا كوعه الحادتان ، حدة اطراف الزوايا تشاهد بجلاء وهو على هذا الوضع الغريب .

اما عظام رقبته فقد بدت كأنها لجام ربط به هذا الشقي الطفل وخيل الي لو انه مارس لعبته هذه مرة اخرى لتحطمت عظامه دون ريب ولسمعنا بآذاننا صوت تحطيمها .

وتصبب العرق من سائر اعضاء جسده ، من جراء هذا المجهود الذي بذله . تبلل ظهر قميصه ، ولكنه كان كلما انتهى من كل حركة يقوم بها ، ينظر نحو الرفاق الصغار ويبتسم لهم ابتسامة مصطنعة لا حياة فيها .

وكان من المحزن حقاً وانت تحدق اليه خلال تلك الابتسامة ان ترى عينين تنطقان عن صاحبها بانه يرزح تحت اشد الآلام وارهبها . كانت عيناه تطرفان باستمرار وكانت نظراتها لا تدلان على معنى من معاني الطفولة البعيدة عن الهموم والمتاعب .

وشجعه الاطفال بصراخهم العالي ، وراح بعضهم في تقليـــد حركاته أو كانوا يحاولون ذلك . وارتفعت اصوات الصغار الذين فشلوا

في التقليد ، ولم ينجحوا سوى ان يتمرغوا في التراب وإلا في ان يوجعوا اجسادهم . كان بعضهم يصيح الماً والبعض من الحنق والغيظ والبعض الآخر من الفشل والاخفاق .

ولكن كل هذا انتهى . وتلك اللحظـــات السعيدة في مقيـاس الطفولة انصرمت حبالها حينما انتهى الصبي من ممارسة العابه . ونظر الى الاطفال نظرة الاستجداء التي يجيدها المحترفون وقال وهو يمد يده :

ـ والآن امنحوني بعض الشيء : . .

وخيم الصمت على الجميع . . . وكان صمتاً طويلا الى ان سأل احدهم مستفهماً

ـ اتبغي ان نمنحك بعض الدراهم ؟ . .

فاجاب الصبي : نعم .

ـ هذه سخرية مدهشة !..

وقال آخر : لقد كان في استطاعتنا ان نؤدي نحن هذه اللعبة كما أديتها انت الا لتأخذ نقوداً نحن ايضاً .

لقد خلق السؤال جواً من الاحتقار ساد الاطفال وسيطر عليهم من ناحية الصبي ، ، ونظروا اليه في استخفاف ، وفي امتهان لشأنه ، ثم مضوا عنه سيمين نحو الحقول وهم يضحكون ساخرين ، ويرددون بعض الشتائم من حين الى حين .

لم يكن احد من الرفاق يملك نقودا .. كانوا جميعاً من المفلسين بينما كنت املك في جيبي عشرة كوبكات ، فوضعت القطعة النحـاسية في كف الصبي الملوثة بالتراب ، فلمسها بأصابعه وقال وهو يبتسم لي : شكراً لك !

ثم خطا في طريقه مبتعداً عني ، فشاهدت القميص عند ظهره

ملطخاً ببقع دكناء وقد التصق بعظمتي كتفيه . فناديته : انتظر !.. وقف قليلا !.. ما هذا ؟..

فتوقف عن المسير ، واستدار نحوي ، ونظر إلي نظرة فاحصة متأملة . وفي نفس الابتسامة الهادئة الوديعة التي رأيتها في وجهه منذ لحظة وقال :

ـ هذا الذي في ظهري ؟.. لقد سقطنا من علو اثناء قيامنا ببعض الالعاب في يوم العيد .. وما زال والدي طريح الفراش الآن .. ولكنني انا على خير ما يرام .

ورفعت القميص عن جلد ظهره فرأيت جرحاً مستطيلا يمتد من كتفه اليسرى الى فخذه . . . جرح اسود قاتم اللون تعلوه قشرة غليظة جافة . وقد تشققت تلك القشرة في مواضع كثيرة بسبب التمرينات الرياضية التي قام بها امامنا ، وفي موضع التشقق كان ينز دم قان حار يسيل على ظهر الصبي .

ونظر الي وهو يبتسم قائلا : لا بأس علي !.. انها لا تؤلمني الآن ... وان كنت اشعر بالميل الى حكها باستمرار ... ولكن هذا لا يهمني كثيراً .

وفي شجاعة تماثل الابطال كان ينظر الى عيني وهو يقول في لهجة رزينة كلهجة الرجل المجرب :

ـ قد تظن انني أعمل من أجل نفسي الآن ! . . ولكنني أقسم لك بشرفي ان هذا ليس صحيحاً . ان ابي ونحن جميعاً لا نملك شيئاً من النقود . . وقد كان جرح ابي بليغاً . لذلك فانت ترى مني انه لا بدّ لي من العمل من اجله . . ولا يغرب عن بالك اننا منبوذون وان الجميع يسخرون منا ويحتقروننا .

كان ينطق وهو يبتسم في غبطة . فلما انتهى من كلامه احنى رأسه المشعث قليلا ثم مضى عني مسرعاً الى ان توارى عن ناظري وراء بعض المنازل .

كل هذا حديث لا معنى له ولا غاية .. حديث في منتهى البساطة أليس كذلك ! ولكني كثيراً ما اذكره في ايام شقائي وعنائي . وكلما ذكرته احنيت رأسي اجلالاً لبطولة ذلك الصبي الرجل !..

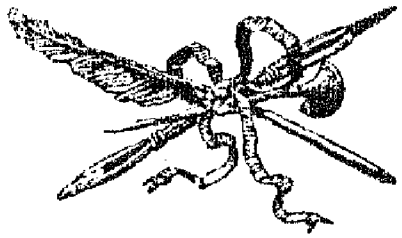

ـ ٣ ـ

بشر لا يودون الحياة

عن مكسيم جوركي

في احدى المواخير الكائنة تحت الارض ، وحول احدى الموائد الخشبية ، كان يجلس « سيماجا » منفرداً ، يحتسي الفودكا ، ويتناول طعامه المؤلف من الخبز والبطاطا واللحم .

وكانت جدران هذه الخانة قد اصطبغت بلون اسود قاتم لما علق عليها من سحب دخان السجاير ، وهباب المطابخ ، ومواقد النيران المشتعلة ، لقد كانت السحب الكثيفة المتلبدة تحجب ايضاً المصباحين المعالقين في سقف الخانة وتضعف من ذوائب نورها ، فيغمر جو المكان لون ازرق قاتم .

وعلى المكتب المعد لصاحب المقهى ، كان مصباح يرسل من ذوائبه ضوءاً اكثر من غيره ، وذلك كي يتمكن رب العمل من استيفاء مطلوبه من حساب الزبائن المخمورين .

وفي هذه الليلة التي اشتد بها حلك الطبيعة ، كانت السماء تنفث حمم غضبها وتقمتها على الارض ، تهدد وتقول ، وتزأر بعواصفها . فتهلع لها قلوب الساكنين الامنين . وتغمر المدينة برزازات البرد ، وتنف الثلوج ، وبلفحات الصقيع البارد .

ورغم ثورة الطبيعة الصاخبة ، لم تؤثر على صخب رواد الحانة ، ولا اضعفت من ضوضائهم : ولا منعت سحب الدخان المتلبدة المنتشرة في افقها عن الظهور ، ولا رائحة الشواء المنبعثة من الطناجر والصحون والتي كانت تتسرب الى الخارج ، وتمتزج بهبوب الرياح الجامحة ، فتنقلها تلك ، عبر الطبيعة الداكنة الغضوب .

جلس سيماجا بثبات ، ودون حراك ، يحدق بعينيه عبر باب الحانة وكان يميل بجسده القوي الى الامام احياناً ، ويحجب بيده عينيه قليلا ليبعد عنها سحب الدخان ، وليتمكن من معرفة القادمين الى الحانة ما بين الحين والآخر .

لقد كان يجتاح خواطر سيماجا موجة من القلق ، ولذا كان حائراً ، مشرد الافكار ، يتفحص كل ما حوله ، ويحملق بوجوه الوافدين ، علّه يستطلع اي خبر ، او يقع على اية بادرة ، حتى اذا ما اطمأن لوصول احد الداخلين ، يأخذ بيده كأس الفودكا ويصبها دفعة واحدة في جوفه ، ويلحقها بست قطع من البطاطا ، وبقطعة او اثنتين من اللحم ، يمضغها ما بين انيابه الغزار ، فيتصاعد من فمه العريض الغليظ صوت المضغ ، وبهوادة كان يلعق بلسانه شاربه العسكري الكثيف كلما فرغ ذلك الفم من الطعام .

كان وجه سيماجا عريض القسمات ، وكانت عظمتا وجنتيه بارزتين اما عيناه فكانتا واسعتين ، تطلان من وراء حاجبين كثيفين ادلهم سواد شعرهما ، حتى كادا يحاكيان بلونهما دجور الليل الداكن ، ويتطاولان كثيراً ، وتدلى احد الحاجبين حتى كاد يتصل بفتحة العين اليسرى .

لقد كان وجه سيماجا من الفئة التي لا تبعث الثقة والاطمئنان حتى ولا بين صحبه وخلانه .

كان سيماجا قد شرب من الفودكا آخر قطرة في كأسه وهمّ ان يتبعها بسواها ، عندما فتح باب الحانة على مصراعيه ، فأحدث بفتحه وغلقه دوياً مرتفعاً .

وفجأة اندفع منه الى الداخل كتلة بشرية كروية الشكل ملتفة بخرق ممزقة بالية ، وكأنها بالة من الحيش ، وصاح هذا الكائن الغريب المنظر قائلاً :

ـ خذوا حذركم يا اعمامي !..

وخيم الصمت على عموم رواد الحانة ، فانقطعت الاحاديث وخفتت اصوات المغنين ، واختفت الشتائم والقهقهات ، وقطع حبل هـــذا السكون صوت أجش النبرات يسأل :

ـ هل تدرك ما تقول يا ولد ؟..

وأجاب الولد الكروي الشكل : يحق قطع رأسي ان كنت من الكاذبين ، لقد شاهدتهم بأم عيني يزحفون من كلا الجانبين ، بعضهم من الفرسان يعتلون صهوات خيولهم ، وبعضهم من المشـاة ، ومنهـم اثنان في الملابس المدنية ، وهم يسيرون ثلة وراء ثلة .

ـ وعما يبحثون ؟.. هل علمت شيئاً ؟..

ـ اغلب الظن ، انهم يبحثون عن سيماجا ، لقد سمعتهم يسألون « نيكوفروفيش » عنه .

كان صوت الطفل يلبعث بوضوح وانفعـال ، ويدوي في جو الحانة الداكن الصامت ، بينما كان جسده يتدحرج كالكرة ، فيقفز من هنا وهناك ويتيه بين ارجل الذين التفوا حول مكتب صاحب الحانة . ودنا سيماجا من الولد وسأله : هل اعتقلوا نيكوفروفيش ؟.

ـ كانوا يجرون في اثره .

ـ واين اهتدوا عليه ؟..

ـ عند العمة ماريا .

ـ وهل اتيت انت من هناك ؟

ـ نعم . جئت بخفة متسللاً من وراء افنية المباني ، ولكنني سأعود ادراجي من حيث اتيت في أحد المراكب الشراعية عن طريق البحر ، واغلب الظن ان رجال السلطة يشنقون الآن شخصاً آخر .

ـ حسناً . انصرف الآن وكن على حذر .

وفي اقل من لمحة النظر ، كان الولد يتدحرج الى الخارج ، وتبعه صوت صاحب المقهى يوحنا بتروفيتش ، ذاك الرجل الورع التقي الذي وخط الشيب شعره وكان يضع على عينيه نظارتيه الكبيرتين ، وعلى رأسه قلنسوة كالرهبـــان ، لا تحجب من رأسه سوى الجزء الاسفل من الجمجمة ، وكان يقول :

ـ انظروا نحو هذا الحيوان الماكر ، لقد سرق بسرعة قطع اللحم ، وافرغ في معدته كل ما في الاناء من ماء ...

وكان سيماجا قد وضع قبعته على رأسه ، واقترب من البـاب ، فلما سمع صوت صاحب المقهى يدوي في الحانة ، سأله قائلاً : ماذا سرق ؟..

ـ سرق اللحمة ، ونظف الصحن . يا للشيطان كيف استطاع هذا الملعون فعل هذا بأقل من لمح البصر . انه ثعلب صغير لعنة الكنيسة عليه ، لم يبق قطعة واحدة من اللحم .

واجاب سيماجا على ذلك : لا بأس عليك . ستعيش بعد هذا الحادث !..

وكانت العاصفة لا تزال تزأر في الخارج وتضفي على الكون جوها الرهيب ، ولم تزل الثلوج تتساقط في غزارة متواصلة ، فوقف سيماجا برهة عند الباب يصيخ السمع الى ما يجري وراءه ، ولكن لم يتسرب الى سمعه غير هبوب الرياح ، وزئير العاصفة ، وهبوط البرد

والثلوج من سقوف المنازل .

ثم سار بانتباه شديد بضع خطوات ، ولما اطمأن قليلا اندفع بخطوات حثيثة الى الخارج ميمماً سيره عبر المدينة .

وما كاد يخطو بعيداً حتى تسرب الى سمعه اصوات تلحق به ، وجلبة خطوات تتبع أثره ، فتسلق سوراً آخر ثم دخل في امان فناءً واسعاً ، وظل يتسلق الاسوار المجاورة ويعبر الافنية حتى وجد نفسه اخيراً في شارع يقابل الشارع الذي تقع فيه حانة يوحنا بتروفيتش .

لقد أمست عموم الاماكن التي كانت آمنة ، مضطربة في هذا المساء وذلك بسبب جولة رجال الدرك المفاجئة في هذا الليل الرهيب . ان قضاء الليل بكامله في الشوارع في مثل هذا الطقس العاصف ، ليس بالامر السهل ، زد على ذلك فهو على خطر يحدق به ، قد يلتقي باحد الحراس الليليين او ببعض رجال المخافر .

وظل سياجا يسير بهوادة وحذر ينتبه الى أقل بادرة ، يوزع انظاره فيما حواليه ، وخيل اليه ان المباني ، ومصابيح الشوارع تزحف نحوه وقد غطيت جميعها بطبقات من الثلوج الناصعة البياض . وعلى غير انتباه تسرب الى سمعه صوت غريب تحمله الى اذنيه العاصفة وكأنه عويل طفل صغير .

ووقف سياجا برهة واستدار برأسه عبر الصوت ، وبدا كحيوان مفترس يتأهب للانقضاض على فريسته .

وتلاشى الصوت ، وهز سياجا رأسه قليلا ، واستأنف سيره وهو يجذب اطراف قبعته علّه يخفي بها قسمات وجهه ، وحاول ان يغرق رأسه بين كتفيه ليمنع عن رقبته تساقط نتف الثلوج الباردة .

وفجأة شعر بشيء يميد تحت قدميه ، فارتعش جسده المفاجأة ،

وما ان تمالك جأشه حتى انحنى بقامته نحو الارض يتبين ما عليها : ما هذا ؟.. وتلمس بيديه شيئاً كادت الثلوج تغمره وراح ينفض الثلج عن تلك الحزمة . وما ان تبين ما بها حتى هتف : يا إلهي ! . . . انه طفل .

وشعر سيماجا بدفء انفاس آدمي بينما أخذ الطفل يتحرك بين يديه ، وهو مبلل الثياب بتأثير الثلوج المتساقطة ، وكان وجهه أقل حجما من قبضة سيماجا ، وجه شديد الحمرة مجعد المحيا ، اما عيناه فكانتا مغلقتين ولكن فمه كان مفتوحاً ومنفرج الشفتين وهو يبكي .

وكان الماء يقطر من الخرق البالية التي لف بها من رأسه الى اخمص قدميه وكان الماء يغمر وجهه ، ويتساقط اللعاب من فمه الخالي الاسنان.

وتملكت الدهشة قلب سيماجا ، ولكن ادركته الرأفة بانقاذ هذا الطفل من موت محتم لكثرة ما ابتلع من الماء المثلج ، ولاح له ان خير الوسائل لانقاذه هو ان يعتصر لفافات الخرق ويصفي منها ما علق عليها من الماء ، فأمسك الطفل من قدميه وجعل رأسه ناحية الارض آملاً ان هذه الطريقة تفي بالغرض المنشود ، ولكن هذه العملية لم ترق للطفل الصغير فارتفع صوته بالبكاء والنشيج ، وكان صياحه يدعو الى الرثاء والشفقة عليه .

وصاح سيماجا يخاطب الطفل : اغلق فمك . اغلقه من تلقاء نفسك ، والا علمتك كيف تغلقه ... ومع ذلك فانت تنبح كالكلب .

غير ان حديث سيماجا لم يؤثر في الطفل . ومضى في عويله وصراخه مما جعل سيماجا يشعر بسخافة تفكيره ، وعاد يحدثه : ماذا تراني افعل بك أو من أجلك ايها الاخ ، انك مبلل الثياب وبارد ، وطفل صغير ، ولكن اين استطيع ان ادفئك وابعث الحرارة في جسدك الهزيل.

واستمر الطفل في عويله .

ـ الواقع يا صديقي انني لا اعرف مكاناً اضعك فيه .

وانحنى سيماجا ليعيد الطفل الى مكانه في الارض ، ابقَ هنا الآن ، وإلا فقل لي بالله اين اضعك ؟ انني يا اخي لقيط مثلك ... نوع آخر من اللقطاء ... وداعاً يا اخي.

ووضع الطفل على الارض ثم خطا خطوات بطيئة وهو يحدث نفسه : لو لم اكن مطارداً الآن لاستطعت انقاذك ، وابعادك عن الخطر ، ولكن ما حيلتي وانا الآن لا استطيع ان أمد لك يد العون ؟ حتى وانني لا اعرف كيف انقذ نفسي من شرهم واذاهم ، فكيف استطيع ان افعل مع الآخرين خيراً وما وجدت من الآخرين اي خير . اغفر لي . . . انك روح بريئة . . . ولكن امك . . . لعنة الله على امك !.

وما كاد سيماجا يصل بحديثه الى هذهالنقطة الحساسة حتى وجد نفسه يعود نحو الطفل يرفعه بين ذراعيه ثم يلفه بمعطفه وهو لا يزال يرمي امه بالشتائم والسباب واللعن ، ومضى في طريقه وقد استولى عليه احساس جديد بالحزن والألم من اجل الطفل.

وغمر العطف قلب سيماجا ، وشعر بتأثر شديد على هذا الطفل اللقيط ، فكان في عطفه وحنانه هذا ، اشبه بطفل يستحق العطف والرثاء هو الآخر .

وظل الطفل يتمايل تحت معطفه في بطء ، وهو يعول وينتحب ويصيح صيحات عسيرة الوضوح .

وشعر سيماجا بحرارة جسد الطفل الدافئة تنتقل الى جسده ، لانه لم يكن يرتدي تحت معطفه سوى قميص ممزق بال . وراح يحدث الطفل ويناجيه : ايه ايها الآدمي الصغير ! انك لعلى حالة لا تحسد عليها ، وماذا بامكاني ان افعل من اجلك اكثر من هذا ؟.. ولكن

امك ؟.. لا تتحرك هكذا ايها اللعين .، أكتم انفاسك واخفت نحيبك ، وإلا وقعت اسير شرهم واذاهم .

وبقي الطفل على حراكه وعويله ، وتوقف سياجا فجأة ، وقد اعتراه الذهول ، فصاح قائلا :

- يا الهي !.. ان الطفل يبحث عن الثدي .. ثدي الام ... يا الهي !.. ثدي الام .

وارتعش سياجا دون ان يدري سبب ارتعاشه . قد يكون الشعور بالحياء والخجل ، وقد يكون الشعور بالمذلة والعار ؟. واحس بعواطفه شعوراً جامحاً يدفعه الى حماية الطفل والحرص عليه ، وغمر الحب قلبه وحنايا ضلوعه ، فاهتز واضطرب ، وهمس في ألم المكتئب ، وتابع حديثه : انني .. انني كالأم ايها الاخ الصغير !.. عما تبحث ؟ وماذا تراني اصنع بصدري ؟.. انني شريد بائس ، واذا صدقتك الخبر فانني اتعس انسان يعيش على وجه هذه الارض ، ويحيا ما بين البشر أتدرك يا صغيري لماذا كثرت تعاستي وازدادت اشجاني ؟.. كل ذلك من اجلهم واجلك . من اجل الذين حرموا العطف ، واغتصبت حريتهم فافتقدوا عطف الام دون ودفء صدرها الحنون وافتقدوا الاب ، وبفقده ضلوا المسير في طريقي الحق والنور ، واصبحوا في مجاعة روحية وجسدية ، يفتقرون الى من ينتظرهم ، ويذود عنهم ، ويحمي نفوسهم من الشر والاذى .

اتدرك ما هي الام بالنسبة للبشر ؟.. هي الارض يا طفلي العزيز ، وقد انتزعوها منا ، فاصبحنا مشردين بائسين نبات في العراء . أو لا تعرف ما هو الاب ؟.. هو السلطة الحاكمة التي اسلمناها قيادنفوسنا ووكلنا اليها امر شؤوننا ، فتخلفت عنا يا ولدي مثلما تخلت عنك امك في هذا الليل البهيم .

لا تغضب ، ولا تحنق على امك يا صغيري !.. فلو بقي والدك الى جوارها يرد عنها غائلات الزمن ، لما تخلت عنك بمثل هذه القساوة الرهيبة . ولكن يا صغيري والدك ... والدك الذي تخلف عن والدتك البائسة بعد ان نال منها وطره ، وخلّف لها وراءه ثمرة الجريمة ، فكنت انت كبش المحرقة على مذابح اغوائها واغرائها وجشع نفسيهما وانانيتهما . لقد امسيت انت ايها الطفل البريء الضحية .

لقد تخلفت عنك امك ، يوم اثقل كاهلها جور والدك ، فانساقت في مدارج البائسات الشاردات ، بينما انساق والدك وراء الآثام والملذات يعيث في الارض فساداً ويزرع بذور الشر فيها فتلد اولاداً تتنكر لهم وتدفع بهم للمبيت في العراء ، وللبؤس والشقاء ، والعذاب والفناء ، أأدركت يا طفلي ما هو الاب ؟.. ولماذا تخلفت عنك امك ؟ فكل ذلك لكي تستر عارها بستر مولدك . لماذا لا تنام ؟.. نم يا عزيزي نم ... نو ... نو ... نو ... هو ... هو ... هو ... انك لن ترضع شيئاً من صدري ... ثم فهذا خير لك . الا يصبح على الاقل مصيرك كمثل مصيري ... نو ... نو ... نو ... هو ... هو ... هو ... كان يجب ان تفعل هذا امك ... ولكن ! مسكينة لم تمنحها السماء هذه الامنية الغالية .

كف عن البكاء ايها الشرير ، فان بكاءك سيدفع بي الى سجنهم الرهيب ، أو فلربما أيضاً الى حبل المشنقة . لم يرضك حديثي ايها الطفل اللعين ، فغفوت ، أليس كذلك ؟.. دون ريب ادركت المخاوف التي تحيط بي وبك ، وان بقيت معي ، وسرت على دربي .. فغفوت ونمت ايها الجبان !.. لا بأس ! لا بأس ، اغفُ الآن فعسى تستيقظ روحك يوماً ، وتتفتح عيناك على نور الحق والحقيقة فترى على قبس هديهما شرهم واذاهم . لا بأس !.. لا بأس ، دعني الآن اسير في

معارج الدروب الشائكة ، اتلقى صواعق السماء والارض ، فلربما غداً تعرف كم شقيت من اجلك في هذا الليل البهيم ، فتذكر اسمي بامتنان وتحفظ ودي في امان ... أليس كذلك يا صغيري ؟.

وشعر سيماجا بدمعة كبيرة تنساب من عينه ، وتتعلق على خده وجف حلقه واختنقت فيه الآهات واجتاحت صدره موجة من الحزن الشديد فاستولت على كامل مشاعره وخواطره .

ان تحت معطفه طفلا صغيراً ، وان عليه ان يسير في الشوارع المهجورة ، غير هياب بعواصف الطبيعة الثائرة ، وانه لن يستطيع ان يفعل من اجله اكثر من هذا .. وتسرب الى سمع سيماجا اصوات حوافر الخيل تتبع اثره ، وفجأة بادره صوت آدمي أجش حازم ، غليظ النبرات يسأله : من هناك ؟..

فوقف سيماجا بالحال ، وتملك قلبه الجزع الشديد ، وعاد الصوت يسأل : ماذا تحمل تحت معطفك ؟ ..

وكان الآمر احد فرسان الجند ، واقترب من سيماجا بجواده ، وقال : تكلم . ماذا تضم الى صدرك ؟

ـ انني احمل طفلاً ... طفلاً صغيراً .

ـ ومن انت ؟.

ـ سيماجا اختيرسكي .

ـ أهذا انت ؟.. اننا نبحث عنك ... اقترب وسر معنا الى جانب رأس الجواد .

واجاب سيماجا وقد ضعفت بجسده كل مقاومة وقال : قد يؤذينا المسير في منتصف الطريق ، الا يمكنني السير الى جانب جدران المنازل ؟..

ولم يدرك رجال الجند معنى ما يقول ، ولكنهم لم يمانعوا فيما

رغب . وظل سيماجا يسير برفقتهم ، قرب جدران المباني ، وتحت شرفاتها وذلك كي يخفف عن الطفل سيول المطر المنهمرة ، والجند يسيرون بائره على ظهور جيادهم . يعبرون مسالك الدروب ، يتبعون بانظارهم خطوات المعتقل ، الى ان وصلوا المخفر اخيراً ، ووقف سيماجا امام الضابط يقول : ماذا تريدون ان افعل بهذا الطفل ؟ هل بامكاني ان اعمل من اجله شيئاً ؟

ـ اي طفل تعني ؟

ـ طفل لقيط . . عثرت عليه ، فقد حنان الام ورعاية الاب .

وأخرج سيماجا الطفل من تحت معطفه ، وحمله ما بين يديه ، وقدمه الى الضابط . وما كاد الضابط يتبينه حتى قال : ان الطفل فاقد الحياة .

فذعر سيماجا للنبأ وهتف : فاقد الحياة !. كيف ذلك ؟.. كنت اتحدث اليه طيلة الطريق .. اذن . يا للمسكين ، فانه لم يفهم كلامي ولم يدرك ما قلته له ، وما فعلت من اجله .

وصاح الضابط : بماذا تنطق يا رجل ؟

ولم يحر سيماجا جواباً . بل نظر حواليه في يأس وقنوط . . ومرت الذكرى المؤلمة بخاطره . اذن . . . لقد كان يسير بالشوارع المتعرجة المسالك ، والدروب الشائكة العسيرة ، يجابه العواصف الصاخبة ، في ذلك الليل البهيم ، وفي صدره طفل فاقد الحياة .

واخيراً ، وقد اعتقل سيماجا ، وما بقي امامه غير سجنهم الرهيب وقانونهم . . . . النفي والتشريد ، او فلربما حبل المشنقة . . . ونظر الى جثة الطفل وتأوه بندم وحسرة ، وتصعدت من حنايا صدره آهة عميقة وهو يقول : أواه . . لقد رضيت ان يقبض عليّ من اجلك . . ظننت انك ستحيا . . ولكنك بشري لا تود الحياة . وهذا خير لك . . ان كان هذا قانون عدلهم . وصاح الضابط بحزم وقسوة : اقبضوا عليه ! اقبضوا عليه .

- ٤ -

ألم دفين

عن مكسيم جوركي

أذكر انني شاهدت تلك المرأة لأول مرة ، وقد كانت تسير بحزن أليم ، وراء نعش فقيد غال ، وهو في طريق مثواه الاخير .

لقد كانت المرأة ترتدي حلة سوداء هفافة ، تجلببها من رأسها حتى اخمص قدميها ، وتنحسر بدقة حول خصرها المياس النحيل فتبرز تقاطيع شكلها المتناسقة ، وجسدها المتعادل الرشيق ، فتبدو للعيان وكأنها قصبة خيزران تمايلها نسمات السحر العليلة ، كانت شفتاها مطبقتين ، ولكن وميض عينيها السوداوين يتألق بالتماع عجيب من بين قسمات الوجه الشاحب كالشمع ، والكئيب من جراء ما اعتمل بصدرها من الم دفين ، وحزن عميق . على فقيد ربما كان اشد المقربين الى نفسها . فوقعت في نفسي موقعاً حسناً ، وشعرت حيالها انني امام مخلوق بائس ، بل امام رمز حي ينطق بابلغ مشاعر النبل .

ثم تلاقيت بها على شاطىء البحر ، في مكان قصي منعزل ، وكأنها فرت من ضوضاء المدينة وصخبها ، وجاءت لتخلد للوحدة والانعزال ، وللسكون ، بين احضان الطبيعة الهادئة المرتكنة .

كان يحيط ذلك المكان المنعزل ، جبال شاهقة ، رمادية اللون ، تتصل بعضها الى بعض .

ولولا بعض التفكك اليسير من جراء ما ابقاه عليها زلزال بركان قديم لخلتها سلسلة دقيقة الحبك ، مرصوصة البنيان . وعلى قمم تلك الجبال وعلى سفوحها كانت الطبيعة بفصولها الاربعة وباعاصيرها ، قد جبلت تراب الزمن فجبلت وتولد منها بعض الحشائش النضيرة السندسية وقد اجتمع حولها بعض من الحشرات الحية التي تألف العيش على صفحات التراب وتنمو ما بين الحجارة والاخاديد .

هناك وما بين مشاهد الطبيعة الصامتة ، كانت تجلس المرأة المعتزلة ، وقد اعتراها الشحوب والجمود فكانت ما بين الحجارة الراسية كتمثال جامد . وكان صمتها ما بين هدوء الطبيعة يبرز بوضوح شديد بينما راحت النسائم العليلة تداعب اطراف ثوبها الاسود الشفاف ، وتلاعب ما انفلت من خصلات شعرها الناعم بطلاوة وليونة ، كانت الامواج تنساق بعدها وجزرها من اعماق البحر اللجوج ، وتسعى الى الشاطيء مشاولة القوى لتتحطم على رواسب الصخور المتآكلة ، وتغسل بمائها المزبد اقدام تلك السيدة الحزينة الصامتة .

وكنت الحظ ما بين الفينة والفينة بعض دموع العين ، تنفلت من مآقيها وتتدحرج ببطء على وجنتيها كحبات من اللؤلؤ شفافة القطرات . فأشعر باندفاع عجيب نحوها ، وبميل شديد للتحدث اليها ، ولكن كانت تنقضني الشجاعة والاقدام لم فاجين عن التقدم نحوها ولا اجرؤ على التحدث اليها .

فاعتصم بالصبر وبالصمت ، واقبع مكاني مكتفياً باستراق النظر اليها ومراقبة ما يبدر منها وظل الحال بي هكذا الى ان كان ذات يوم من ايام شهر ايار المشرقة ، وقد اعانني البحر نفسه على التحدث اليها .

لقد بات البحر في عشية ذاك اليوم في اهتياج صاخب ، ولكنه اضحى مع انبثاق الفجر على موجات هادئة ، غير معتكرة ، تتدافع

ببطء ، وترمي بهوادة زبد مائها الناصع ، فتغمر احجـار الصخور المترامية ، فتغسلها باقل من لمح البصر ، ويلتمع منها اشعاعات متعددة الألوان من جراء انعكاس اشعة الشمس الذهبية المتوهجة بالدفء والنور.

واندفع من بين المد والجزر موجة صاخبة ، اجتاحت الشاطيء بعد ارتفاع شديد ، ثم انحنت بذل وانحدار ، فتكسرت بقوة على تلك الصخور الجلمودية ، وتناثرت رزازات مائها في ذاك الفضاء الواسع . واثارت بتحطيمها ، اصواتاً رهيبة ، وضجة كبرى ، وانفلت من فم المرأة المعتزلة صيحة خافتة ، ثم هبت فجأة واقفة ، وراحت تنفض ما علق على ثوبها من رزازات المياه المتناثرة .

واندفعت نحوها اود معاونتها ، ولكنني صمدت امامهـــا بخجل وحياء ، وتوردت وجنتاي إذ وجدتها بغنى عن معاونتي لها .

وادركت المرأة ما بدر مني حيالها ، فهلت قسمات وجهها بالغبطة والحبور ، وافتر ثغرها عن ابتسامة لطيفـة ، اشرقت قسمات محياهـا على الاثر ، وتحركت اجفان عينيها برعشة خفيفة ، ثم وصل الى آذاني صوتها الهادىء الرقيق وهي تسألني ، هل جزعت من اجلي ؟.

وقبل ان تستمع الى جوابي ، تحولت بانظارها نحو البحر وقالت : وهذه موجة اخرى لا تقل اصطخاباً عن سابقتها . . . عفوك عني . لقد ازعجتك .

ـ ولكن .. كلا .. كلا لم يزعجني شيء البتة .

لا تخف ذلك ، وقد رأيت ما انتابك ... لقد عكرت عليك صفوة وحدتك وانفرادك ، وقطعت عليك حبل السكون . ومن العدل ان لا نعكر على اي انسان حلاوة تلك الوحدة . فقلت : انت ... انت تنطقين باشياء عجيبة .

فقاطعتني بهدوء وقالت : حقاً ، ولكنني اقدر قيمة هذه الكلمات .

وسارت ببطء لتقتعد قمة صخرة اشد ارتفاعاً من سابقتها ، وعاد وجهها الى جموده ، وراحت تحدق بي ، في خلال الصمت الذي خيم علينا . ثم تحولت بنظرها عبر البحر الذي كانت امواجـــه لا تزال تصخب وتجيش بمدها وجزرها المستمرين ، وتنـــدفع الى الشاطىء لتتحطم رغم ارادتها على تلك الصخور المتآكلة الجرداء .

وخطوت نحوها قليلا ، ثم همست بصوت بدأ خافتاً في اوله ثم اخذ بالارتفاع شيئاً فشيئاً الى ان تمت وضوح نبراته وقلت :

ـ سيدتي !.. ليس في الكون احب للنفس من الوحدة والانفراد والسكون . ولكن تنقصنا احياناً القوة القادرة على احتمال اثقـــال آلامنا . واذا افتقدنا هذه القوى انهار اعتزال القلب ، ويكون مصيره الى الجفاف كمثل الارض الطيبة اذا لم يسركها الغيث من حين الى آخر .

فتحولت بنظرها نحوي بيقظة صامتة ، ولاح في عينيها الها الدفين فقلت لها : لقد شاهدتك ذات مرة ، وانت تسيرين وراء نعش احد الاعزاء .. وكنت تبكين .. وها انت هنا في عزلتك ، تذرفين العبرات . فاجابت بصوت خافت النـــبرات كصوتي ، وكان واضح العبارات رغم انحناء رأسها ، وتصعدت من صدرها آهة عميقة وقالت : اواه ... لم يكن ذلك النعش باول نعش يسير وراءه البشر ليشيعوا جثث امواتهم الى مثواها الاخير ، ولم تكن تلك الآلام التي تجتاح قلوب الاحياء على امواتهم ، بالشيء المهم ، لأنها على الاقل ، اقـــل قساوة من دفن آلام الاحياء في قلوب الاحياء ... وهذا ما يحـدث غالباً . أأدركت معنى كلماتي .

ـ بلا ريب . انني ادرك ما تتفوهين به .

وشملنا السكون بهدوئه ، وكانت الامواج لا تزال تتلاطم تحت

اقدامنا وتتحطم ، فتتلاشى ثم تبعث من جديد . وكانت طيور البحر تنعب فوق رأسينا بعناد وظماء ، ونسائم البحر تبعث في اجسادنا العزم والقوى ، وتمتع خيالنا بالانشراح والجمال ، وبدت صفحة مياه البحر الزرقاء متلائلئة تحت اشعة الشمس الساطعة ، فترسم بانعكاساتها خطوطاً رائعة متعددة الالوان ممتزجة بحمرة ذهبية متوهجة كالوقيد المتلهب .

وفجأة اخذت السيدة تحدثني وقالت : استحلفك بالله ان تصدقني هل سعى امرؤ ما ولو مرة واحدة ان يشاركك في سعادته ؟.. كلا. انا لا اؤمن بحدوث مثل هذا ، اما في تعاسته ، فلا بد ان يكون قد سعى اليها تكراراً ، ألستُ مصيبة بذلك ؟ .. وانت ماذا ترى ؟..

واستدارت بنظرة المرة الثانية عبر الخضم الشاسع ، وهي تراقب بعيون يقظة فعل المد والجزر المتلاطمة الصاخبة ، وكـــذلك عادت فانتقلت بانظارها رويداً رويداً ، وراحت تمتـع الطرف بمنظر طيور البحر الناعبة الناعقة ما بين زرقة الماء وزرقـــة السماء ، ثم تابعت حديثها : اننا نتحدث كثيراً عن اشجاننا ، وغالباً ما نستاء لكل ما يحيط بنا ، فنغرقه بجو زاخر بتأوهاتنا وحسراتنا ، وحين تفقد الحياة نبقى في كل مكان بقايا اشجاننا الشخصية ، فيخلق سوانا وسرعان ما يتخذ مكاننا في الحياة ، قد يكون رجلاً قوياً كالابطـال ، ولكن عدواناً تنتقل اليه في الميراث قبل ان ينساق على دروب الحياة المريره وقبل ان يتقلب بين مراحل الزمن ويعرف خيرها وشرها ، بؤسها ونعيمها . نحن لا نستطيع ان نرسم لوحة صادقة عن ميولنا دون ان نخلط معالمها بالالوان الشاحبة القاتمة ، اما الالوان الزاهية الوهـاجة التي تبعث في النفوس الاطمئنان ، فاننا نبقيها لجراحنا الخاصة ، ونحن لا نحفظ بخواطرنا ولا سيما في الشعر والرسم الا ما يثقل احساسنا، ويوهن قوانا ، وكل ما يكبدنا شخصياً الخسائر الفادحة .

وهكذا يظل من يأتي بعدنا يسمع كل ذلك ويراه ، وغالباً ما تنهك قواه مصائب الآخرين . حتى قبل ان يذوق تعاسته الشخصية ، وحين تحل الاحداث في دياره لا يجد في عزيمتـــه القوة الضرورية ليدفع الاذى اسوة بالآخرين . فيعول ويصخب ، وترتفـــع اصواته جياشة النبرات .

وانقطع حديث السيدة لحظة ، وتأوهت وتاهت نظراتها عـــبر الفضاء . حيث كانت طيور البحر تنعب وتتبارى في سباق سريع ، ثم تحولت نحوي وتابعت حديثها : ان من يحترم في سواه الكرامـة الانسانية ، يجب ان لا يتحدث عن شخصيته ، من حلل لنا الحق ، ومن منحنا العدل في ان نسمم حياة اخواننا من البشر بكشف جراحنا المؤلمة امامهم ؟.

كان الانسان فيما انفرط من عقـد الزمن ، اذا ما اصيب بجرح بليغ ، يعتصم بالصمت حفظاً على كرامته ، وضناً من ان يتعرض لشماتة الاعداء ، خوفاً من ان يقهقهوا من آلامه المبرحة ، ويسخروا من عويله وصراخه . اما اليوم فاننا نصم سائر اذان البشر بعويلنـا وصراخنا لمجرد ألم طفيف يسببه لنا ضرسنا . . .

ان نعمة الصمت تخلت عنا ، وان الاوجاع التي تصيبنا من ألم ما ، لربي اشد من الالم نفسه . غير ان المرء غالباً ما يفقد الحياة في سبيل الطماعة وافراط في الشكوى . وانا اضن بالرثاء والشفقة على مثل هؤلاء البشر .

وتوقفت المرأة عن الكلام لحظة ، ثم عادت تتابع حديثها بصوت بدأ خافتاً ، ثم ما فتأ ان تدرج بالارتفاع ، فجاءت كلماتها الهادئة تعبر

بوضوح فقالت : لكم اود ان ارى البشر اكثر تبلاً واحتفاظاً لكرامتهم ، واعتزازاً وافتخاراً لهاتين الصفتين ، فلو كنت ساحرة لوهبت كل مخلوق جديد ، ما بامكاني اعطاءه من نعمة الصمت .

وهبت المرأة واقفة . فتراءت لي بوميض عينيها اللامعتين ، وبقامتها الرشيقة ، وبثيابها السوداء القاتمة ، اشبه بنسر طليق الجناحين يحلق في فضاء اللا نهاية ، غير هياب باعاصير الفضاء .

وكانت الامواج اذ ذاك لا تزال تتلاطم تحت قدميها ، ولما استقرت نظراتي على محياها ، وجدت تلك القسمات الشاحبة قد بدت هادئة مرتكنة ، وعيناها العميقتان تحدقان نحو مكان قصي ، وتراقصت اهداب عينيها الطوال ، حين مدت يدها لتقول لي : وداعاً !..

فرددتُ تحيتها بسكون شامل ، وانسابت من قربي باتجاه الصخور المتآكلة الرمادية اللون ، وكانت تختفي عن ناظري ، ثم تعود للظهور الى ان حجبتها عني تماماً تلك الصخور الجلمودية الصماء .

وبقيت زمناً احدق حيث يمت خطاها ببطء ، وكان يعتريني الجمود والصمت ، واستيقظت من تأملاتي البعيدة ، على اصوات الامواج التي كانت لا تزال تتلاطم على تلك الصخور الراسية الجرداء ، وحين عدت ادراجي من حيث اتيت ، كانت النسائم تهب عليه ، والقمر ينشر انواره الفضية من أعلى قمم الجبال ، على صفحة الماء ، فتنعكس على صفحة السماء الزرقاء . وتشمل الكون باشعتها ، وتغمر الارض بوحدة خرساء .

٥

وراء الخبز

عن مكسيم جوركي

غادرنا مدينة « بركوب » ونحن على أسوأ الاحوال ، غادرناها ونحن ناقمون على العالم اجمع ، كنقمة الذئاب الجائعة . فقد قضينا قبل تركنا اياها مدة اثني عشرة ساعة في بذل جهد ضائع ، محاولين سرقة شيء او كسب شيء ، غير مدخرين في هذا السبيل اية قوة ذهنية ، أو طاقة بدنية ، فلما ايقنا ان ليس لنا وسيلة للنجاح ، لا في السرقة ولا في الكسب الحلال ، عزمنا على ان نغادرها ، ولكننا لا نعرف اين ستحط بنا الرحال .

لا بد لنا ان نرحل ما دمنا استطعنا الحراك . ونحن على اتم الاستعداد لاستئناف نهج الحياة الذي سلكناه من قبل ، وهو ذلك الذي تم رأينا عليه في صمت ورضى ، وان لم نكن نعلن هذا بحديثنا ولكن عيوننا كانت قد اعلنته جلياً لما كان يلتمع فيها من بريق الجوع المخيف .

كنا ثلاثة حديثي العهد بالتعارف ، فقد جمعتنا مصادفة في بيت عمومي « بمدينة خرسون » ، على شاطىء نهر « الدنيبر » وكان احدنا من قبل جندياً في فرقة حرس السكة الحديدية ، ثم تزعم عصابة للسطو على هذه السكة في خط (فيستولا) وكان احمر الشعر

قوي العضل، بارد النظرات ، اشهب العينين ، يتكلم الالمانية ، وهو واسع المعرفة بحياة السجون . ومن دأب امثالنا ان يكرهوا الحديث عن ماضيهم ، ولدينا معاذير للزوم الصمت ان تفاوتت بين بعضنا والبعض موجبة للزومه ، ومن اجل هذا اعتدنا ان نتظاهر بتصديق بعضنا . اما في قرارة نفوسنا فقد فقدنا مزية التصديق .

ولما قال لنا زميلنا الثاني ، وهو ضئيل الجسم هزيله ، دقيق الشفتين لا يكاد ينفرج فمه إلا عن ابتسامة شك ... لما قال لنا انه كان طالباً بجامعة موسكو اخذنا قوله ، انا والجندي ، كأنه قضية حقة ، وانه لا فرق عندنا ماضي اي واحد منا سواء أكان طالباً او جاسوساً او لصاً فكل الذي يعنينا من امره ان يكون في حاضره مساوياً لنا ، جائعاً مثلنا مستحقاً في المدن عناية الشرطة ، وفي القرى اهتمام المخاتير ومشايخ البلاد ، وان يكون كارهاً لهذين النوعين من الناس كراهية الوحش الجائع الضعيف .. وان يكون مستزماً الانتقام من العالم على وجهي التعميم والتخفيض ، وان تكون صفوة القول فيه انه فرع من شجرتنا . فمكانه من سادة الناس مكاننا ، وتكوين عقله كتكوين عقولنا .

وكنت أنا ثالث الثلاثة ، ولن اقول كلمة عن صفاتي لأن السكوت عن ذلك يقتضيه تواضع الموروث ، ولكيلا أبدو امامك ساذجاً غراً ، فسألزم مثل هذا السكوت من نقائصي أيضاً . وعليّ ان اظهرك على احدى خلالي ، ولعل معرفتها تغني عن البقية ، فقد ظللت طول حياتي مؤمناً بأني أفضل من الآخرين ، واني لا ازال على هذه العقيدة الى اليوم .

هكذا كنا عندما غادرنا « بركوب » وقد اعتمدنا في اليوم الاول على من عسانا نلقاهم من الرعاة ، منهم أناس لا يردون في العادة

من يسألهم القوت . وقد سرت والجندي في المقدمة ، وتبعنا الطالب وكان على كتفيه ما يشبه السترة ، وليست بسترة ولكنها بقية ثوب ذي حاشية . وكانت رأسه حادة الزوايا عجيبة التكوين ، وقد لف ساقيه الدقيقتين بقماش يغطي رجلي سروال ضيق كثير الرقع المتعددة الالوان . وفي مكان الحزائين منه لفائف مربوطة بخيوط ، وبقطع ممزقة من ثوبه وكأنه بهذه اللفائف يضع في رجليه حذاءً طويلاً ، كأحذية الجنود . ولكنه كان يسمي الحذاء « صندلاً » كان يمشي في صمت مثيراً بقدميه غباراً ويطيل التحديق بعينيه الخضراوين الى الفضاء .

واما الجندي فكان مرتدياً قميصاً احمر اللون ، يزعم انه اقتناه حلالاً بكده في مدينة « فرسون » وفوق القميص عباءة ممزقة ، وهو حافي القدمين ، وعلى رأسه قبعة عسكرية عتيقة ، فقدت لونها ، ولكنه يرتديها على النظام العسكري ، لفافتها الامامية ملاصقة لحاجبيه وقد لف ساقيه كجياد القوزاق ، بلفافة من قماش غليظ ، اما قدماه فكانتا عاريتين .

اما انا فكنت افضل منهما ثياباً ولكني حافي القدمين مثلهما . وظللنا نسير وحولنا من كل الجهات فضاء ممتد في هذا السهل الفسيح الأجرد الذي يشبه صفحة عظيمة الاتساع خالياً ، الا في جوانب منه ففي هذا السهل بقاع متناثرة متباعدة فيها زرع شيطاني من الحنطة او الشعير نبت من فضلات ما يلقى في الطريق .

وكان منظر هذه البقع المزروعة شديدة الشبه بخدي صاحبي الجندي وذقنه غير الحليقة ، وكان صوته الاجش مثل رنين النحاس وهو بين حين وآخر يرفعه بالانشاد بانغام كنائسية . فقد كان في مدة خدمته العسكرية يشغل وظيفة المرتل في الجيش ، وقد استظهر بهذا السبب ما لا حصر له من الاغاني والاناشيد الدينية ، وهكذا كان

في الفترات بين احاديثنا يسيء استعمال علمه بتلك الاناشيد فيدفع عقيدته بها .

وكان الافق صوب اعيننا ملوناً بالوان رقيقة ورديه مشوبة في بعض جهاتها بالاصفرار وفي البعض بالاحمرار ، وبعضها ناصع البياض . وقال الطالب وقد رأى شيئاً عن بعد قال بصوت جاف : لا بد ان تكون هكذا جبال القمر !

وهتف الجندي : القمر ؟ ليس الذي تراه يا صاحبي الا سحابات ، ما اشد شبهه باكلة من توت طبخت بالحليب .

وقد تمنيت لو كان السحاب اكلة ، واعربت عن هذه الامنية . فأثارت هذه الملاحظة ثائرة الجوع ، والجوع لعنة عهدنا الحاضر . واخذ الجندي يلعن ويسب ويدعو ان نلتقي بأحد فننشب فيه اظفارنا ونلعق بعد ذلك اصابعنا كما تفعل الوحوش بالمخاليب في الشتاء وقال الطالب بلهجة المعلم الخبير : ألم اقل لكم انه كان الاولى بنا اختيار طريق مأهولة !.

فاجابه الجندي في غيظ : انت قلت لنا : انك انت المعلم فينا ، فكان عليك ان تدلنا على الطرق المأهولة . بل قلت لا يعلم مكانها الا الشيطان .

وعاد الطالب الى لزوم الصمت ، وضم شفتيه . وكانت الشمس أثناء غروبها تلقي ألواناً من الاشعة لا يمكن وصفها بالكلمات ، وفاحت الارض بروائح التربة والاملاح ، تلك الروائح التي تشحذ شهوة الطعام ، وتحرك ساكن البطون ، وبدا لنا كأنما هذه الروائح بخار يتصاعد من عضلات اجسامنا التي تضمحل حيويتها بقدر ما تفقد من هذا البخار . واحسسنا بجفاف في الحلوق ، وشعرنا بدوار في رؤوسنا ، وظللنا طيلة الوقت تخايل اعيننا بقع سوداء تظهر ثم تزول .

وكانت هذه البقع تبدو تارة في شكل قطع مشوية من اللحم ، وطوراً في شكل الارغفة . وصور لنا الخيال ذكريات الماضي بمختلف طعومه وشتى روائحه ، ثم شعرنا بمثل المدي تشق امعاءنا شقاً ، واخذ كل منا يصف لزميله احاسيسه ، ودار كل منا ببصره في كل اتجاه راجياً ان يرى قطيعاً من الماشية ، او يسمع صوت عجلات تحمل عرباتها إلفا كهة الى بعض الاسواق الارمنية .

لكن البراري كانت خالية خاوية صامتة .

وفي مساء ذلك اليوم العسير ، كنا قد تناولنا من الاكل ثلاثتنا ما يزن ثلاثة « كيلو غرامات » من خبز الشعير ، وثلاث بطيخات وقطعنا من الطريق نحو الاربعين فرسخاً . ولم يكن ثمت تناسب بين ما يتجدد من قوانا ، وبين ما يستهلك منا ، وكيف لا ، حتى ولو استطعنا النوم بسبب التعب لأيقظنا الجوع .

وكان الطالب صادق النصح لما أشار علينا بعدم الاضطجاع طلباً للنوم ، بل كنا نحاوله ونحن جلوس في فترة الليل .. واثن كان من دأب الراقين من الناس الا يتحدثوا علناً عما يرتكبون من سرقة متاع الغير ، فما يدفعني على النقيض منهم الى الحديث عن ذلك ، غير الرغبة في الصدق ، وليس لي هوى في الظهور بمظهر القسوة ، وانتهاك الحرمات ، وانا اعلم ان مرور الايام يزيد من رقة المشاعر وخاصة في مناطقنا التي تزداد فيها الثقافة حتى ان احدهم حين يخنق الآخر فما يضغط على عنقه الا بغاية ما يستطيع من الرقة والاشفاق ، مع رعاية الاوضاع الملائمة لهذه الحالة . وان التجارب التي جربها حلقي في هذا الصدد ليقنعني بأن العالم لا يزيد الا رقياً ورفاهية . ذلك الرقي ، وتلك الرفاهية ، اللذين لا يدل عليهما شيء كما تدل الزيادة المطردة في عدد السجون والمواخير .

وهكذا بين احساس بجوع نخفيه ، ووقت في حديث ودي نبعده حاولنا تخفيف ما تعانيه امعاؤنا من الالم بالسير في البراري الصامتة الجرداء ، تحت اشعة الشمس الغاربة ، على أمل ان نجد طعاماً نأكله وكان قرص الشمس مختفياً خلف غمام رقيق يتخلله انبثاق من أشعة غنية بالالوان ، ومن حولنا قتام ازرق رقيق يتزايد متصاعداً من الارض الى السماء .

وقال الجندي : علينا ان نجمع الآن ما يصلح للوقود ، خشباً كان أو حطباً أو ورقاً جافاً .

وبدأ يجمع ذلك مما حوله . وتفرقنا نحذو حذوه ونحن مدركون ان ندى الليل يضطرنا لذلك ، وبرودة الجو تحتاج الى المزيد من النيران .

وكان شعور كل منا وهو يخي ، ليلتقط ما يجده من ذلك ، هو بشعور الرغبة بالالتصاق بالارض ، وتناول القوت من ثراها الاسود وإراحة اجسامنا المكدودة بالنوم العميق . بالنوم وليكن ذلك النوم ابدياً على ان نستمتع قبله بالاكل وبالمضغ ، وباستشعار الدفء ، وبان ترطب حلوقنا الجافة بامتصاص اي شيء وقال الجندي متنهداً : من لنا بأي نوع رطب من العشب نمتصه .

لكن هذه التربة السوداء لم يكن بها من العشب شيء اصلاً ، وسرعان ما خيم الليل والقت الشمس آخر اشعتها كما يلفظ الميت آخر انفاسه ، ثم بدأت النجوم تظهر واحدة اثر واحدة ، وصاح بنا الطالب : انظرا ايها الرفيقان ! ها هنا رجل نائم .

وقال الجندي بلهجة الشك : رجل نائم ؟ ولماذا ينام هنا ؟.

واجاب الطالب : اذهب وسله . لا بد ان يكون لديه الخبر .

ونظر الجندي في الاتجاه الذي اشار اليه الطالب وسار نحوه ،

فتبعناه . وكان الطـــالب اقوانا بصراً ، فهو الذي ادرك المنظر على حقيقته ، اما الجندي وأنا فبدا لنا جسم غير واضح التكوين في غبش الليل على مسافة مئات من الامتار ، فلما زدنا دنواً منه ، وادرك انه نسير في اتجاهه ، تحرك . ورأيناه جسما حياً ، وجثا على ركبتيه ومد نحونا ذراعيه وصوب نحونا مسدساً ، وهو يصيح : قفوا وإلا اطلقت عليكم النار !..

ووقفنا بضع دقائق ، وبدأ الجندي يسب ويلعن ، بينما لزم الرجل الصمت .

ثم صاح الجندي ، اننا لا نود بك سوءاً ، غير اننا جيـــاع ولديك خبز ، فاقذف الينا ببعض ما عندك ، فنحن اخوانك ، ثم اذهب انت الى لعنة الله .

لم يحر الرجل جواباً . وتابع الجندي حديثه ، وكان يرتعش من الغضب واليأس : الا تسمع ؟ ارم الينا بالخبز .

فاجاب الرجل : لا بأس .

ولقد كان في وسعه ان يقول يا اخواني الاعزاء ، ليكون جوابه معبرا على انسانيته ، وأدعى الى ان يثير فينا رقيق المشاعر ، وقدسية الاحساسات ، ولكنه لم يشأ الا ان يقول لا بأس .

وقال الجندي بصوت رقيق ، وعلى فمه ابتسامه عذبة ، لم يبادله الرجل بمثلها . وكنا قد امسينا منه على بعـــد عشرين خطوة : لا تخش ، فنحن رجال مسالمون ايها الانسان الطيب ، ولا نملك مالاً ، وطريقنا طويل ، من روسيا الى كوبان ، وقد نفذ زادنا ، وهذا ثاني يوم قضيناه دون طعام .

وصاح الرجل : خذوا . والقى الينا في الهواء باشياء ولما تناولناها وجدناها خبزاً جافاً اسود ملوثاً بالطين ، واسرع الطالب الى التقاطها .

وأعاد الرجل قوله : خذوا أيضاً ! . . وظل يلقي ، والطالب يلتقط ، حتى اصبح عندنا ما يزيد على عشرة كيلو غرامات .

وجلس الجندي يقسم الخبز بيننا ، فقلت : هذه اقسام غير متساوية ، فأعط الطالب قطعة من نصيبك . وأخذت قطعة ولكنها في فمي ببطء ، وبمثل حالة المتشنج ، ثم رحت اتناول قطعة بعد آخر من هذا الخبز الكريه الطعم ، وأنا أعجب كيف يتحول هذا الغذاء الى دم والى خواطر ، وافراح واحزان ، وكيف يدفيء المعدة ، ويغذي الجسم ، وتوارى عن خاطري في وليمة اللحظة ، ايام جوعي ، ونسيت كذلك زميليّ ، ولكن ، حين وضعت في فمي آخر لقمة من نصيبي شعرت برغبة عنيفة لاستئناف الاكل .

وقال الجندي : لا بد يكون مع هذا الملعون شيء من اللحم أو شيء من الدهن .

وقال الطالب : انني اشتم رائحة اللحم معه ، ولو لم يكن لديه شيء من ذلك ، لما حمل المسدس ، انه مثلنا من طائفة الاسماعيلية .

وبقينا نحدق النظر نحو صاحب المسدس ، ونحن نستمع لتصعيد انفاسه ، ونظر احياناً الى النجوم الملتمعة في كبد السماء ، ونستمتع بتألقها واشراقها ، فيزداد احساسنا بالجوع ، وقلت : ينبغي لنا ان نقتل هذا الرجل الذي احسن الينا ، ولكن يجب ان نأكل كل ما معه من الطعام ، حتى ولو اطلق علينا النار .. ومع ذلك فانطلقة المسدس لن تصيب الا واحداً منا ، واذا اصابت فانها لن تقتل .

ووثب الجندي ، وهو يدعونا لنتتبع اثره . فسار وراءه الطالب وتبعته انا . وعلى حين فجأة رأينا وميضاً من النور ، وسمعنا طلقة مسدس .

وصاح الجندي فرحاً : لقد اخطأنا .

وهجم هو والطالب ، وهما يتوعدان صاحب المسدس ، وكانت مفاجأة ،حين وجدناه وقد اطلق النار على نفسه ، وارتمى على ظهره .

وقال الطالب : هنا لحم وكعك وخبز ايها الرفاق !

وقال الجندي وهو يستخلص المسدس من يد الرجل الغريب : اذهب الى الشيطان ! واجلسا نأكل معاً ايها الرفيقان .

وجلسنا نستأنف الاكل ، وبجانبنا جثة الرجل لا تتحرك ، فلم نأبه لها ، ثم سمعنا صوتاً أجش مضطرباً يقول : أكل هذا من اجل الخبز يا اخواني ؟

فدهشنا ، وتنحنح الطالب ، وقال الجندي : لقد وميت لنا ايها الكلب بخبز جاف ،واطلقت الرصاص ، فمن اي شيء كنت تخاف ، أليس على الخبز ؟.. هل كنت تظن اننا نريد ان نأكلك انت ؟..

قال ذلك وهو يمضغ ثم تابع : بعد ان ننتهي من الطعام سنسوي حسابنا معك .

ولكن الرجل الجريح اخذ يبكي ويتنهد ، فجزعنا لصوته في ظلام الليل ، وقال بصوت متقطع النبرات : ايها الاخوان ! .. ليتني كنت اعلم انني ... انما اطلقت النـــار على نفسي من شدة خوفي ، وكنت مسافراً من مدينة « طوس » الجديدة الى مدينة « سمولترج » فاصبت بالحمى في اثناء الطريق ، ولي زوجة وبنتان ، لم اراهن منذ ثلاثة اعوام أو اربعة .. كلوا ايها الاخوان !.. كلوا كل شيء !..

وقال الطالب : سنأكل كل شيء ، فلا تخف ، هل كنت تظن اننا بحاجة الى استئذانك ؟

فاجاب الرجل : يا إلهي !.. ليتني كنت اعلم انكم مسالمون ! .. اصفحوا عني .

وكان حديثه مزيجاً بين البكاء والكلام ، وهو يرتعش .

وقال الطالب : لا بد ان يكون لديه مال . ثم ابتسم .

وقال الجندي : لنوقد النار ، ولننم !.

قال الطالب : وهو ؟..

فاجاب الجندي : الى الجحيم ! هل في وسعنا ان نشويه ؟..

فقال الطالب : هذا هو الواجب .

وجمعنا الوقود ، واشعلناها ، وتعددنا حولها .

وقال الجريح ، وهو على بُعد خطوات منا : هل تسمحون ايها الاخوان ، ان انضم اليكم لأكون على مقربة من النار ؟.. فاني اشعر بالبرد يسري في عظامي .. يرد الموت ! يا الله !.. لن ارى منزلي بعد الآن مرة اخرى ؟.

قال الجندي اقترب .

وقال الطالب : ازحف نحونا .

وزحف الرجل زحفاً وكان يجرّ اعضاءه . وتبيناه ، فوجدنا اشد حالات الالم مرتسمة على عينيه ، وعلى وجهه الشاحب ، وجسمه الملتصق بالتراب ، وقد استولت عليه رعشة ، أثارت فينا العطف والاشفاق .

وقال الجندي : لماذا سلكت هذا الطريق ؟..

فاجاب : لقد نصحوني بان لا اتخذ طريق الماء ، وها انا يا اخواني سأموت في البراري ، وستأكل الطيور جسدي ، وان تراني زوجتي ولا بناتي يا إلهي ؟..

وكان صوته كصوت الذئب الجريح . وقال الجندي : ولماذا تبكي هذا البكاء ؟ أليس في وسعك ان تموت في اطمئنان ؟.. من الذي يريدك ؟.. دع البكاء واخرس .

وقال الطالب : اضربه على ام رأسه ، ودعنا ننام قبل ان

وقال الجندي : هل سمعت ؟.. هل تظننا آسفين عليك ، لانك القيت الينا بالخبز الجاف ، ووراءه طلقة مسدس ؟.. انت شرير .

ونام الطالب او تظاهر بالنوم ، ولزمت انا الصمت ، واخذ الجندي يحدق في نجوم السماء ويقول : يا لها من ليلة ؟.. ما اكثر النجوم وما اروعها ؟.. وما اجمل السماء لحافا لنائمين في العراء ! . . انني احب هذه الحياة ايها الصديق ، احبها رغم ما بها من البرد والجوع ، لأن فيها الحرية ، ليس لنا من سيد هنا ، انني انظر الى السماء الساطعه ، فاخال ان النجوم تقول لي : استمر ايها الرجل ، ولا تيأس . فانصاع الى نصحها واشعر بالسعادة .

وانت ايها الجريح لا تغضب علينا ، فقد كان لديك خبز ، وكان في وسعك ان تنجو وتنجينا ، ولكنك شرس ترمي الناس بالرصاص . الا تدرك ان الرصاص يؤذي ؟ لقد كنت منذ قليل اريد تهشيم رأسك جزاء وقاحتك ، وانت تملك مالاً ، فكان في وسعك ان تشتري في الصباح خبزاً من مدينة بركوب .

وظل صوت نحامي ، صوت الجندي يجلجل فترة ، وظل انين الجريح ، يجرح اذني فترة اخرى كذلك ثم ادركني النعاس فنمت .

☆ ☆ ☆

استيقظت على صوت الجندي ، وهو يدعوني الى اليقظة ، ويشد ذراعي . وفتحت عيني فرجدت نور الشمس قد ملأ الافق ، ووجدت جريح الامس قليلاً ، انفتح فمه ، وجمدت عيناه ، وارتسم عليها الفزع ووجدت ثوبه ممزقاً ، ولم اجد للطالب ادنى اثر .

وقال الجندي : ألم ترَ ما فيه الكفاية ؟..

سألت : هل مات ؟..

فقال الجندي : نعم خنقه الطالب ونحن نائمان وهرب ، لقد سرق ما معه من المال وتركنا ، ونحن رفيقاه ، فهل ترى افضل من هذا ؟.. ولكن علينا ان لا يرانا احد في هذه البراري ، لأن فيها قتيلا ، ولأن لدينا مسدساً ، فأين نقضي الليلة الآتية ؟

فقلت : ارمِ المسدس .

فقال : كيف وثمنه لا يقل عن ثلاثة ريالات ، ومع ذلك فقد استعمل هذا المسدس ، إن به طلقة واحدة ، فمن لي بان ارى وجه زميلنا الطالب الذي استولى على المال وهرب .

قلت : وقد حرّم منه زوجته وبنتيه .

فقال الجندي : ما لنا ولهن ، انهن سيتزوجن !..

ومشيت مع الجندي ، ولا يشغل بال احدنا غير التفكير في الطالب ، وكانت الشمس تزداد تألقاً في السماء وارتفاعاً ، ويقل في نورها سواد الاجرام ، ان الجرائم السود قلما ترتكب تحت النور .

وقال صاحبي وهو يشعل لفافة من التبغ : اريد يا صاحبي ان آكل ، واستطيع ان التهم اي شيء ، ولكن ماذا نأكل واين ؟..

وظللت امشي مع الجندي الى مقاطعة فارس ، وقد علمني هذا الحافي القدمين المجرب المتشرد كيف احترمه ، ثم لم اعد اراه .

وكان آخر ما دار بيننا من الحديث ، قوله عن صريع البراري:

ـ لا انا الملوم ، ولا انت الملوم ايضاً على قتله ؟ كلا ! ولا احد في الدنيا يلام ، فنحن جميعاً وحوش تجري وراء الحب والخبز .

— ٦ —

هذا هو الحب

عن الكسندر بوشكين

كان الجفاء على اشده بين « ايفان بتروفتش برستوف » وجاره « جريجوري ايفانوفتش مورسكي » عندما جاء الكسيس وحيد الاول « برستوف » الى مزارع والده بعد ان اتم دراسته في الجامعة ، وكان يرغب الالتحاق بالجيش ، لكن والده ابى الا ان يدخل الخدمة المدنية بالحكومة .

وكان لجريجوري ابنة جميلة في السابعة عشرة من عمرها تدعى « ليزا » وقف نفسه على العناية بتربيتها وتعليمها بعد ان توفيت امها ، وجاء اليها بمربية انكليزية .

ولما كان الكسيس شاباً جميل الطلعة بارعاً في الصيد فقد فتنت به فتيات القرية ، ولكن اشدهن اهتماماً بامره ، وتنسم اخباره هي ليز ابنة جريجوري مورمسكي ، التي لم تره ، وانما سمعت عنه ما شوّقها الى رؤيته ...

* * *

جلست « ناسيتا » وصيفة ليزا وكانت اشد شقاوة من سيدتها ، وراحت تحدثها عن الكسيس وما رأته منه في الحفلة التي اقامها بيت آل برستوف لمناسبة الاحتفال بمولد قديس طباختهم ، وقد اخبرتها

انه اجمل مما ذاع عنه ، وانه لطيف متواضع داعب المدعوات جميعهن حتى قبلهن واحدة فواحدة خلال اللهو معهن . لكن له عيباً وحيداً وهو انه يسعى وراء الفتيات اللواتي اقل منه شأناً .

وعندئذ قالت ليزا : ما اشد ما اتوق الى رؤيته !..

فقالت لها ناسيتا : ولم لا ؟ ان « تونجولوفو » ليست بعيدة عنا وهو يخرج للصيد في صباح كل يوم ، فلو انك مشيت او ركبت متجهة الى نفس وجهته لتلاقيت به في الطريق .

ـ قد يظن انني اسعى وراءه .. كلا يا ناسيتا ان لي خطة اخرى سأرتدي ثياب ابنة فلاحة ، واصادفه على هذا الشكل .

وفي صباح الغد بكرت ليزا بالخروج ، وقد اوصت وصيفتها بان تقول لأبيها ومربيتها انها خرجت بقصد الرياضة ، ولاستنشاق نسيم الصباح . وحرصت على ان لا يراها احد بالمنزل وهي مرتدية ثياب فلاحة .

وتمت خطواتها نحو الغابة ، وكان قلبها شديد الخفقان الى ان وصلت الى درب غير معبدة تظللها الاشجار من كلا جانبيهـا ، واذ بكلب صيد يفاجئها بنباحه ، فذعرت وصاحت برعب ، وفي الحـال سمعت صوت شاب ينهر كلبه قائلا : تعال هنا يا « شوجار » !..

ثم ظهر شاب وسيم الطلعة ، جميل المحيا من بين الاشجـار وقال لها : لا تخافي يا عزيزتي ، ان كلبي لا يعض احداً .

وقد نسيت ليزا مخاوفها لحظة حين رأت الشاب ، ولكنها عادت تمثل دور المذعورة ، وعرض عليها ان يصحبها الى منزلهـا ، فابت واخبرته انها ابنة فاسيلي الحداد وقد جاءت الغابة لتجمع عش الغراب. وسألته من يكون ، فأخبرها انه خادم السيد الشاب الكسيس ..

فابتسمت وهزت رأسها منكرة وقالت :

ـ ان هذه الكذبة الصغيرة لا تسرى عليّ ، انك لست خادم السيد الصغير ، ولكنك السيد الصغير نفسه .

ـ وما الذي يدعك تجزمين هكذا ؟..

ـ هناك دواعٍ كثيرة.

ـ ولكن ...

ـ اي انسان يمكنه ان يميز بينك وبين خادم .

فمثلاً ثيابك ولهجتك ... حتى كلبك نفسه يحمل اسماً اجنبياً .

وقد ارتاح الكسيس الى ليزا ، وأعجب بها واراد ان يخطف منها قبلة ، فتراجعت الى الوراء وقالت له :

ـ لا ينبغي ان تنسى آدابك معي .

ـ ومن الذي علمك هذه الآداب ؟. هل هي صديقتي ناسيتا ، وصيفة سيدتك ؟ ان المدنية تنتشر بسرعة في هذه الارجاء .

ـ أتظن اني لم اذهب قطالى دار المختار ؟ لقد رأيت وسمعت اكثر مما تظن . والآن دعني اذهب في طريقي ، ولتسر انت في طريقك .

فأمسك بيدها وقال : ما اسمك يا عزيزتي ؟..

ـ « اكولين » وقد حان الوقت لأن اجمع عش الغراب ، واعود الى ابي .

ـ حسناً . اني سأزور والدك فاسيلي الحداد .

ـ أتوسل اليك ان لا تفعل . ان ابي إذا علم اني كنت احدث سيداً غنياً مثلك ، وانني كنت وحدي معه في الغابة ، فلا سعد ان يضربني حتى الموت .

ـ ولكن لا بد ان اراك .

ـ اني آتي الى هنا احياناً لكي اجمع عش الغراب .

ـ متى ؟..

ـ غداً اذا شئت .

ـ غداً في هذا المكان ، وفي هذه الساعة . اريد منك قسما أعتمد عليه .

ـ أقسم لك بيوم الاحد المقدس .

وعادت ليزا الى بيتها فبدلت ملابسها بسرعة ، قد امتدحها ابوها ومربيتها على خروجها مبكرة للرياضة ، لان الفتيات الانجليزيات يفعلن ذلك

وقد ندمت ليزا على تحديد موعد لالكسيس ، ولكنها خشيت ان هي لم تف بالوعد ان يذهب الى الحداد فاسيلي، وكان لهذا ابنة تدعى اكولين دميمة المنظر ، فيتضح له حقيقة حالها .

ولذا قابلته في اليوم التالي . ثم في الذي تلاه ، وبعده تكرر بينهما اللقاء ، ونشأت في قلبيهما المحبة .

ومن العسير ان اقص هنا تفاصيل لقائهما في الاسابيع التاليـــة المملوءة بالحب والبهجة . حتى اذا انقضى شهران على ذلك ، كان كل منهما مغرماً بالآخر ، غراماً ملك عليه رشده . ولا شك ان الكسيس قد مرت بمخيلته فكرة الزواج ، ولكنه كان يقاومها للتفاصل الشاسع بين طبقتهما الاجتماعية التي تفصل بينه وبين ابنة فلاح بسيط .

ولما راعه جهلها اخذ يعلمها اصول القراءة والكتابة . وقد اعجب بتقدمها السريع فيها ، فلم يمض اسبوعان حتى استطاعت ان تكتب الكلمات ، ومن ثم بدأت المكاتبة فيما بينهما في الايام التي يلتقيان فيها ، وقد اتخذا من جذع شجرة معينة صندوقاً للرسائل ، واتخذت ليزا من ناسيتا ساعية للبريد .

* * *

في صباح يوم صحو خرج « ايفان بتروفتش برستوف » راكباً جواده ، وبرفقته حارس الصيد ، يتبعهما ستة من الكلاب وفي الوقت

نفسه اغرى ذلك الجو « جريجوري ايفانوفتش مورمسكي » بالخروج للصيد أيضاً ، واتفق انهما التقيا في الطريق وجهاً لوجه ، فلم يسع مورمسكي الا ان يحيي ايفان رغم الجفاء الذي بينهما ، فرد برستوف التحية بأحسن منها . وكان مورمسكي يعدّ نفسه ماهراً في ركوب الخيل ، فترك لجواده العنان ، واذا به يوقعه في بركة على مرأى من برستوف ... فاسرع هذا واعانه على النهوض واخذه الى بيته لأنه اقرب كثيراً من منزل مورمسكي . وهناك اكرمه وجاءه بملابس بدل ملابسه المبللة ، وقد زالت العداوة فيما بينهما في مثل لمح البصر ، وفهم كل منهما الآخر فأصبحا صديقين حميمين من تلك الساعة . ثم اوصله برستوف بعربته الى منزله . ولم يتركه مورمسكي الا بعد ان وعده بان يأتي مع ولده الكسيس للغداء عنده في مساء الغد .

ولما دخل مورمسكي الى بيته ، رأته ليزا يعرج فسألته عن السبب ، وقص عليها ما حدث ، فدهشت ثم زادت دهشتها حين اخبرها والدها ان برستوف وولده الكسيس قادمان لتناول طعام العشاء في مساء الغد . فانذرت اباها اولاً بانها لن تظهر في المأدبة . ولكنها عادت فرضيت ان تحضر واشترطت على والدها ان لا يبدي دهشة مما يظهر من غرابة احوالها .

وبينما برستوف وولده الكسيس ومورمسكي جالسون الى المائدة اذ دخلت ليزا وقد وضعت على وجهها طبقة كثيفة من مسحوق « البودرة » . ولبست ثوباً كالذي كان يلبس في عصر « مدام دي بومبادور » ، ونظمت شعرها بشكل يبعث على الضحك . وقد دهش والدها مورمسكي لمظهرها وكتم الضحك بصعوبة . ولكنه تذكر وعده لها فسكت .

اما برستوف وولده الكسيس فقد حييا لها باحترام ، ولم يلتفت

الشاب اليها ، بل مكث طوال الوقت وهو لاه عنها مشغول بافكاره .

وقد سرت ليزا لنجاح خطتها ، حتى ان الكسيس لم يعرفها ، ولم يدر انها هي « اكولينا » المزعومة .. ولما قابلته في الغد وهي على شكل الابنة الفلاحة قالت له بخبث :

ـ سمعت انك تناولت امس طعام العشاء في منزل آل مورمسكي فما رأيك في سيدتنا الصغيرة ؟..

ـ لم اعرها التفاتة البتة .

ـ لقد كنت اود ان اعرف مدى ما يقوله الناس من انني قريبة الشبه لها كثيراً .

ـ هذا هراء ، ولا وجه للمقارنة فيما بينكما .

ـ ولكن الجميع يعرفون ان سيدتنا الصغيرة ليست بارعة الجمال فقط ، بل انها سيدة الازياء ايضاً .

ـ لكنني اؤكد لك يا اكولين انك ابدع نساء العالم طراً .

وقد تكررت الزيارات بين برستوف ومورمسكي ، وزال كل اثر للاجفاء السابق الذي كان فيما بينهما وحل مكانه ود وطيد . وكان مورمسكي يعلم ان برستوف اغنى اغنياء القرية ، فتمنى لو يزوج ابنته ليزا من ولده الكسيس . وفي الوقت نفسه كان برستوف يتمنى ان يزوج ولده الكسيس من ابنة صديقه الحسناء المصرية . وخرج الاثنان من دور التفكير الى دور المصارحة ، فاتفقا على هذا الامر ، وقد توقعا ان يتفق الشاب والفتاة بسهولة . كما اقترح مورمسكي على صديقه ان يكثر التردد على منزله برفقة ولده فلا تلبث المحبة ان تندلع نارها في قلبي ولديهما .

ولكن الكسيس كان دائماً يعتذر باعذار واهية عن تلك الزيارات حتى ضاق ابوه به ذرعاً . ففاتحه ذات مساء في انه يرغب ان يزوجه

من ليزا مورمسكي . ولما اجابه الكسيس بانه لا يشعر بميل الى تلك الفتاة ، وليس بامكانه اسعادها ، هدده والده بحرمانه من الميراث اذا لم ينفذ له رغبته .

وكان الكسيس يعرف صرامة ابيه ، وصدق عزمه ، فقضى تلك الليلة قلقاً ساهداً يفكر في عزمه على الاقتران بأكولينا ، وقرر ان يعمل ويكسب رزقه بعرق جبينه ، غير عابىء بحرمان ابيه له من حقه في الميراث .

ولم يكن قد قابل اكولينا منذ عدة ايام نظراً لتغـــير الجو وبرودته . فكتب اليها خطاباً يخبرها فيه بتهديد والده له ، ويصارحها بعزمه ورغبته على الاقتران بها رغم شدة المـانعة ، وعلى ان يكسب رزقه من عمله ولو كلفه هذا العمل الجهد والعناء ، ويطلب منهـا ان تجيبه بالموافقة .

وترك هذا الخطاب في جذع الشجرة كالمعتاد .

وفي صباح اليوم التالي رأى ان يزور مورمسكي بنفسه ليصارحه بانه لا يمكنه ان يتزوج بابنته . وقد أمّل من هذه الصراحة ، ان تؤثر فيه ، وتهز وتر الشهامة في نفسه فيحول دون الزواج .

وقفز عن جواده حيث وصل منزل مورمسكي ، واسلم قيـــاد الجواد للسائس ، ودخل البيت وهو يحدث نفسه ، يجب ان يبت في هذا الامر حالاً .

غير ان مورمسكي كان متخلفاً عن منزله في تلك الساعة ، فلم يثنه ذلك عن عزمه ، وعبر فجأة الى غرفة الانتظار ، وهو عازم على ان يصارح ابنة مورمسكي بانه لا يشعر بحبها ، وانه لا يستطيع الاقتران بها .

ولكنه ما كاد يلج الغرفة ، ويرى الجالسة امامه ، حتى اذهلته المفاجأة ، وكذب عينيه فيما يرى ، فقد شاهد اكولينـا جالسة الى

نافذة الغرفة وهي تطالع رسالته الاخيرة ، وقد شغلت بالقراءة عنه ، فلم تشعر بقدومه ، ولما تنبهت له ، حاولت الفرار من الغرفة خوفاً من افتضاح امرها ، ولكن الكسيس هرول وراءها بخطوات مسرعة وصاح بها منادياً :

ـ اكولينا !.. اكولينا !..

فاستدارت نحوه واجابته بلهجة رزينة :

ـ اليك عني يا سيدي ، هل جننت ؟..

ودون ان يجيب على كلامها ، تقدم نحوها ، وبسرعة ضمها الى صدره ، يشبعها لثماً وتقبيلاً .

وبينما هما مستغرقان بنشوة العناق والهوى دخل مورمسكي فجأة فلما وقع نظره عليهما صاح مبتهجاً :

ـ هذا هو الحب !.. يبدو لي انكما قد دبرتما امركما فيما بينكما !.

واجاب الكسيس : لقد كنا على غرام دفين ، ووفاق متين .

فتمتم الاب وهو يدير رأسه عنهما : لقد تكللت مساعينا بالخير ، ولم يعد امر زواجهما بحاجة الى ايضاح جديد .

الطل

عن الكسندر بوشكين

في الليلة الثالثة من ليالي عطلة عيد الميلاد ، اجتمع بعض الضيوف في منزل « راكيتين » كاتب البريد الاعزب ، القاطن في مدينة كرازيليفو .

وكانت المائدة التي جلسوا حولها قد وضعت في احدى الغرفتين اللتين يتكون منهما المسكن ، تلك الغرفة التي اطلق عليها صاحبها اسماً ضخما هو بهو قاعة الاستقبال ، تمييزاً لها عن الغرفة الثانية التي اعدها للنوم .

وكان يجلس في مكان الشرف من المائدة مدير مكتب البريد المسمى « شميدت » وهو رجل شاحب اللون منتفخ الجسد كأنه برميل ممتلىء بالماء .

ومن على يمينه جلس الاب « ديكون فاسيلي » بينما جلس على يساره مضيف الليلة ، وهو رجل قصير القامة ، مليء بالحيوية والعزم له وجه شاحب ، وقد مشح بياض عينيه بالاصفرار .

اما بقية الاماكن فقد شغلها مساعد مفتش البوليس وبافلوف ، وهو ضابط قوزاقي احيل على المعاش ، يمتاز بروح مرحة ، وشخص آخر ذو شعر اسود طويل على غرار القديسين ، واخيراً وفي نهاية

المائدة الكبيرة كان يجلس « آغي فوميتش » وهو موظف ثنوي في مصلحة البريد ، وكان لا يشغل في المجتمعات الا آخر مساعد وذلك لكثرة جبنه وتردده .

وكان آغي فوميتش هذا يتحاشى زيارة الناس ويهرب منهـــا ، لأن معناها هو دعوة الناس فيما بعد لزيارة منزله .

كان موظفاً في المكتب لاضطراره الى القيام بتكاليف كسوة واعالة زوجة وحماة مسنة وخمسة اطفال ، وكان مرتبه البالغ حوالي اثني عشر روبلا لا يكفي كل هذه المطالب .

كان يجلس في نهاية المائدة شارد اللب ، مشتت الفكر مضطرباً وكان يبدو اكثر شحوباً عن ذي قبل ، وكأن قلبه قد غاص في جوفه جبناً وخجلاً .. وكان يفرك كتفيه بـــين الفينة والفينة في عصبية زائدة منتظراً اللحظة المناسبة ليتفوه بكلمة ...

وكان يرفض دائماً كل ما يقدمه اليه المضيف مدفوعـــاً بشعور الخوف الذي لا يستولي الا على أمثاله من المنكوبين ، كان يخشى ان يكلف مضيفه فوق ما يطيق .

واكل المدعوون وشربوا بعد ان قضوا فترة من الزمن في مناقشة سقيمة لا حياة فيها ولا معنى لها حول احـد ملاك الاراضي وحول رئيس مصلحة البريد وحول القسيس المحلي ، واخـــيراً حول موسم الحصاد القادم .

وخيل لآغي فوميتش هذه ثلاث مرات ان الفرصة المناسبة قـد حانت ... الفرصة المناسبة لكي يميـل على مساعـد مفتش البوليس ، ويطلب منه قرضاً متواضعاً ، وشيئاً فشيئاً انتقل الحديث الى موضوع صعوبة العيش في هذه الايام .. وجعل هذا الموضوع للحديث صفـــة عامة إذ انه موضوع يهم الجميع ... واجمع الحاضرون على انه : مهما

قيل فان أهم شيء في الحياة هو المال ، والمال وحده .

وقال شميت في صوت لاهث : كدت اصبح ذات مرة من الاثرياء حين لعبت في حفلة زواج السيد بروشنكي .

واخذ يروي قصة مؤداها انه اخيراً خسر باللعب كل ما ربحه .

وصعّد الاب ديكون آهة وهو يقول : هناك قوم حسنو الحظ بالنسبة لاوراق « اليانصيب » .

وكان الجميع يعلمون انه يملك تذكرة من تذاكر «الدين الدولي» . وتنهد مرة اخرى ، وهو يتابع حديثه قائلاً : لقد قرأت اخيراً ان مرابياً من المرابين ربح جائزة المليوني الف روبل ، يا له من مبلغ هائل ! ويا لها من ثروة طائلة ، بالنسبة لرجل فقير ، ولكنها كانت من حظ رجل موفور الغنى ، يلعب بالمال لعباً ، ولله في خلقه شئون .

وانتقل الحديث بعد ذلك الى مختلف القصص المشهورة والمعروفة عن الاثرياء ، تلك الاحاديث والقصص التي تشبه نصفي حبة الفول . كيف جاء روتشيلد الى باريس سيراً على الاقدام ، وكيف كان يبيع عيدان الثقاب في الشوارع . ثم اصبح بعد ذلك ثرياً مليونيراً !..

وكيف ينتقل بعض الناس من الفقر المدقع ، الى الغنى المفاجئ نتيجة العثور على كنوز تحت الارض ، او نتيجة الربح في اللعب ، او نتيجة ميراث اعمام ، من اصحاب الملايين الذين يعيشون في اميركا .

ولو ان آغي فومتش لم يشترك في الحديث ، ولم يردد حرفـاً واحداً فانه كان يستمع اليه بكليته ، وبكل جارحة من جوارحه .

لقد كان آغي على الرغم من شحوب لونه ، رجلا ذا خيـال خصب نشيط سريع الحركة .. وكانت اقاصيص الديون والـثروات المفاجئة وهؤلاء القوم الغريبي الاطوار والاحوال الذين يلقبون باصحاب الملايين .. كانت تلك الاقاصيص تهز كيانه هزاً عنيفاً وتدهشه ايمـا

دهش وخصوصاً في تلك الساعة التي اذلته فيها الحاجة . الحاجة الى عدة روبلات . وفجأة وجد آغي فومتش نفسه ينفجر قائلا :

وهناك بعض الناس يجدون النقود في الشوارع !..

فتحول نحوه الجميع بنظرات دهش واستغراب ، اذ انهم فوجئوا بكلامه للمرة الاولى ، وظل على صمته الى ان اتحف الجالسين بهذه الجملة ، ولكنه ما كاد يرى النظرات ترمقه ، والعيون تتأمله حتى انطوى على نفسه خجلاً ، وظهرت على محياه علائم الاضطراب الشديد واخفى نظراته متأملاً في غطاء المائدة .

وقال مساعد مفتش البوليس معلقاً على كلام آغي في لهجة تنم عن سخريته : دون ريب ، ان بعض الناس يجدون النقود في الشوارع ولكن من جيوب الآخرين .

وضحك الجميع ، ولم يكن ضحكهم نتيجة فكاهة اتحفهم بها مساعد مفتش البوليس ، بل نتيجة ما بدا من منظر آغي فومتش الذي جلس مأخوذاً ، مضطرب الانفاس ، وقد كست امارات الرعب وجهه .

ولكن الحديث انتقل الى مكان آخر ، والى افق آخر .. انتقل الى ذكر حوادث السرقات المشهورة ، وقضايا السلب والنهب العنيفة التي لم يوفق البوليس من اكتشاف مرتكبيها بعد .

ومرت لحظة بدت امام عيني آغي فومتش مناظر عشرات ومئات الالوف من الروبلات ، وحزمات ضخمة من اوراق النقد المكدسة ، وخيل اليه انه يقرأ في الفضاء اسماء شخصيات من كبار الاثرياء الذين لا يعرفون عدد ما يملكون من الاموال ، وبسبب ذلك هو ضخامة العدد الذي لا يحصى .

وراح يصيخ السمع الى الحديث الدائر بين الجميع ، بشعور الرجل

الجائع امام مأدبة زاخرة باشهى الوان الطعام .

ودقت الساعة القديمة في الحجرة تعلن الواحدة ، وتنبه المدعوين ان الليل أخذ بالانقراض وان ميعاد الانصراف قد حان لهم . ونهض الاب ديكون ، ونهض في اثره الجميع ما عدا آغي فومتش ... ووقف راكيتين وقد حمل بيده شمعة مضاءة لينير الطريق لضيوفه المنصرفين بينما ظل آغي جالساً في مكانه ثابتاً كتمثال لا يتحرك ، ولكن يديه فقط كانتا تعبثان في عصبية واضطراب ببعض الخبز وهما ترتجفان ، وكان يحدث نفسه قائلاً : سيعود راكيتين بعد لحظة ، وسوف اطلب اليه ان ... ولكن يجب عليّ ان اكون اكثر جرأة ... وماذا سيفعل ان طلبت ؟.. لا شك انه لن يأكلني !

وعاد اخيراً راكيتين وجلس الى جانب ضيفه ، وقد ظهرت على قسمات محياه علائم الاستغراب لكونه لم يبرح المنزل مع باقي الضيوف .

كان على آغي ان يوضح غايته ، وان يطلب الدراهم التي يريدها ، ولكنه لم يفعل ، بل بدأ في حديث طويل ممل عن العمل ، والاجور وكان راكيتين ينظر اليه في خلال ذلك الحديث بعينين سيطر النوم عليهما ، ولو انه كان يتظاهر بالاصغاء ، والاهتمام ولكنه كان يتثاءب من حين الى آخر .

ومضت نصف ساعة ، ولم يعد بامكان راكيتين الصبر على ذلك وفجأة فتح فمه ، وانطلق متثائباً على اكمل ما يكون التثاؤب ، واذا به ينشر ذراعيه متمطياً ، وقال : اني آسف !.. ولكنني مجبر ، اذ ان لديّ عملاً في صباح الغد .

ونهض آغي فومتش في سرعة وبدأ يقدم عبارات الاعتذار ، واتجه نحو باب الخروج ، وسار حتى قبض بيده على مزلاج الباب ، وهناك توقف فجأة ، وتملك ارادته ، ثم استدار نحو راكيتين ، وقال

بصوت ذليل خافت : اسمع !.. لي طلب صغير ، صغير منك .

ـ وماذا تريد ؟..

ـ انت تعرف ... انت تدرك ... انا لا اود مضايقتك . ولكن الزوجة ، كما ترى ، على وشك الوضع ... انت تفهم هذا ولا ريب . واني اعدك انني سأرده .. هل يمكنك ان تقرضني ؟

كان آغي يريد ان يقول عشرة روبلات ، ولكنه في هذه اللحظة بالذات ، ادرك ضخامة المبلغ المطلوب ، فاذا به يقول في صوت اخفت من صوته الاول . خمسة روبلات .

وكان جواب راكتين ، وهو يضع يديه في جانبيه : ولكنني لا املك كوبكاً واحداً ، ان المنزل بأسره ليس فيه كوبك واحد ! .

وكان آغي يعلم ان راكتين يملك نقودا ، ولكنه يخشى ان يقرضه بعضها ، ولكن ماذا يفعل ... ردد بعض عبارات الاعتذار ومضى الى الشارع .

* * *

كانت ليلة من ليالي القمر ... وكان البرد شديداً ... وصوت ارتطام الاقدام بالثلج الذي يكسو الارض يسمع جلياً ... وكان على آغي فومتش ان يقطع مسافة طويلة ... الى منزله .. المال .. المال .. كل تفكيره كان في المال ... انه بعد قليل سيصل الى بيته الرطب الكائن تحت الارض ، ذات النوافذ الخضراء التي وضعت فيه زوجته عوضاً عن الزجاج المكسور بعض اوراق الجرائد ... ان هذا يرعبه . واذا ما فتح الباب ودخل ، ستملأ انفه رائحة الفقر ، رائحة الحاجة والفاقة ، رائحة ملابس اطفاله البالية . ماذا سيقول لزوجته عندما تسأله عن النقود في صوت ذليل متعب ؟.. لقد عاد اليها بعد ان اشترك في وليمة تناول فيها الفودكا ، واكل لحم الخنزير المشوي .

بينما اوت هي والاطفال الى الفراش وهم جياع قانعون بمجرد الامل في ان والدهم سوف يعود اليهم ومعه بعض المال .

وتنهد آغي من اعماقه ، وهو يردد صرخة من صرخات الارواح المعذبة : يا إلهي !.. لماذا وهبت الآخرين السعادة والراحـة ، وكل ما يطلبون ويرجون ؟ لماذا نسيتني وتخليت عني يا إلهي ؟ لماذا يجد بعض الناس ما يريدون ، وفوق ما يريدون من المال ، ولماذا لا اجد انا ولو مرة واحدة ما اريد ! عشرة ... عشرة روبلات ، وليست عشرين روبلا لادفع اجر القابلة ، ولابتاع حـذاء « لفاسينتكا » ومعطفاً يدفيء « ليليا » .. لماذا لا اجد كيساً في الطريق ؟ .. او محفظة ، ان هذا لا يحدث كثيراً ... يحدث غالباً . . . لقد سمعت وقرأت كثيراً عن حالات مثل هذه .

وذهب به التفكير بعيداً ... وتخلت مخيلته عن التفكير ، وبدأ يحلم في اليقظة احلاماً سعيدة ..

خيل اليه انه عثر على كيس كبير من الجلد في الطريق ، وانه فتحه فوجد فيه رزماً من اوراق النقد الباهظة ، واوراق اليانصيب .

وانتقل فجأة الى مسكن فخم بهيج دافيء ، واقتنى اثاثاً من احسن الانواع ، واشترى الكثير من الملابس لنفسه ، ولأفراد اسرته واشترى كل الاشياء الجميلة التي يستطيع بالمال شراءها ... وشيئاً فشيئاً وقد يكون ذلك بتأثير كؤوس الفودكا التي احتساها ، قد سيطرت على تفكير آغي ، فكرة قوية لم تعش الى جانبها فكرة اخرى ... يجب اليوم ، بل في هذه الساعة ان يجد كيساً في الشارع . . . وسيجده سيجده بأسرع مما يتصور ... ولكن لماذا يحدث هذا ؟ .. انه لا يدري بل لا يستطيع ان يفكر في سبب حدوثه ، وكيفية ذلك الحدوث . . . كان يشعر ببساطة انه سيحدث . . . وسار

مطرق الرأس يتفحص الارض في عناية .

ـ والآن في هذه اللحظة . . . في اللحظة . . . ان كثيرين من الناس وجدوا مثل هذه الاشياء . . بعد خطوات اخرى . . . حالا . . . فوراً . . .

وفجأة ، ولم يكن هذا تحت تأثير احلام اليقظة ، ولم يكن خيالاً ، رأى شيئاً اسود في الطريق الثلجي الابيض ، وتقدم آغي نحو هذا الشيء ، وقد ارتفع شعر رأسه بعد ان نظر حواليه خلسة وفي حذر نظرات لص حريص ، ثم اندفع ، اندفاع الريح ناحية هذا الشيء .

وبين يديه امسك بكيس من الجلد . إذن فقد حدث ما كان ينتظر !.. ولكنها مفاجأة اخرسته ، وصدمته حتى انه فقد الحركة لمدة ثوان ... ثم سرت الفرحة في عروقه ، وادرك انه حصل على ما يريد ، فوضع الكيس عند صدره ، وخطا مسرعاً الى منزله .

كان عليه ان يسير نصف ميل ... ولم يكن قد اعتاد السرعة ، فشعر بجنبه يؤلمه ، نتيجة لتلك التجربة ، وجف حلقه ، وشعر كأن الدماء بغلي في رأسه ، ولكن فانه لا يستطيع ان يتوقف عن السير . خيل اليه انه لو تأخر لحظة للحق به صاحب الكيس واخذه منه .

وفي اثناء سيره سقطت قبعته من فوق رأسه ، فخطر له ان ينحني ليلتقطها ، ولكنه عدل عن هذه الفكرة واستمر في سيره وهو يحدث نفسه : سأشتري الف قبعة غيرها .

وطرق باب المنزل طرقات متوالية عنيفة ، ايقظت زوجته وهي ترتجف ، واقبلت لتفتح الباب وفي يدها شمعة .

واستيقظ الاطفال ايضاً ، وبدت في عيونهم علامات الفزع ، وهم ينظرون الى والدهم .

ووقع آغي على مقعد قريب وقد اصفر وجهه وشحب ، وتصبب العرق من جبينة والتمعت عيناه وصاح : يا انيشكا .. يا اولاد .. هنا في هذا الكيس .. مال .. نقود مائة الف روبل .. منزل كبير .. فودكا .. اربعمائة الف .. هل تفهمون .. هورارا !.. هاي بيان هاي .

☆ ☆ ☆

اما اليوم فان آغي فومتش غني من كبار الاثرياء . ثرى الى درجة انه اذا قورنت ملايين « الالدرادو » وكنوز « كاليفورنيا » بثروته لبدت كل شيء .. انه يمتلك ستين الف جواد من خيرة الجياد في اسطبلاته ، ولديه ثلاثة ملايين وخمسمائة عربة خاصة .

انه مدير جميع سكك حديد العالم بما فيها الخط الذي انشيء حديثاً ليصل بين الارض والمريخ ، وهو كريم كرماً غير عادي ، فهو يهب اي بائس يلقاه لا اقل من مليون روبل ... انه كريم الخلق ، ودمث الطباع ، ولكنه لا يحتمل شيئاً واحداً وهو ان يقترب احد الناس من كيسه الجلدي الذي يحتوي على ثلاثة روبلات معفرة بالتراب ، وايصال تصدير عفش ، ونشرة منتزعة من احدى الصحف .. انه اذا اقترب احد من هذا الكيس قفز من مكانه ثائراً ثورة غريبة ، ورمى المحيطين به باقرب شيء يقع في يده ..

اما زوجته واولاده فانهم مغرمون بوالدهم يتفانون في حبه وخدمته ، وهو يبادلهم نفس الشعور .

ومن يدري . الا يحتمل ان يكون المجانين اسعد من العقلاء ؟..

— ٨ —

رمل الحياة وزبدها

عن الكسندر بوشكين

كانت نسائم الربيع تلاعب الستائر الشاحبة القذرة في غرفة « أنا فردريكوفا » صاحبة نزل « سيريا » وهو احد فنادق الدرجة الثالثة . كانت جدران الحجرة مكسوة بالورق الاصفر ، وعلى احدها علقت مرآة متدلية الى الامام ، وظهر على صفحتها منظر ارض الغرفة وصور بعض المقاعد والقليل من الاثاثات المقابلة . كانت الغرفة مقسمة الى اجزاء ، ففي الركن الجانبي الصغير سرير صاحبة المنزل . وعلى جانبه مخادع اولادها الاربعة ، ويقابلهم من الناحية الاخرى ركن تكدست فيه آلات وادوات وملابس ، وكل الاشياء التي لا تخطر على بال ، فمن حقائب مختلفة الاحجام والالوان ، الى صناديق صغيرة ، الى قيثارة مقطعة الاوتار ، وآلة موسيقية بدوية « اكورديون » ، الى آلة حياكة قديمة ، وآلة تصوير ، وأشياء اخرى كثيرة ، صادرتها صاحبة المنزل من زبائنها الذين تهربوا من دفع اجرة مبيتهم في منزلها .

واغلب زبائن نزل « سيريا » من المسافرين المتجولين ، ومن القرويين الفقراء ، أو السماسرة اليهود ، كما ان النزل يستقبل بعض الشبان والشابات ، يأتون اليه خلسة ازواجاً ازواجاً !..

كانت « أنا فرودريكوفا » تطبخ بعض الطعام في ركن من

الغرفة ، وهي ارملة تخطت العقد الرابع من عمرها ، ووخط الشيب شعرها الكث الغزير ، ولكن وجهها احتفظ برونق صباها ، وهي امرأة عصبية المزاج تظهر دلائل البغض والحب والغضب والبهجة على وجهها في لمح البصر .. قوية البنية ، بامكانها ان تحتسي الفودكا كأي رجل ، كما انها لها ميلاً جنونياً الى الرقص .

وعلى ارض الغرفة جلس طفلاها الصغيران ينتظران في لهفة بدء تناول الطعام .، اما الابنة الكبرى « اليشكا » وشقيقتها « رومكا » فلم يعودا بعد من المدرسة . وعند النافذة جلس الملازم « ايفانوفتش » من احتياطي الجيش الى منضدة وفتح امامه الدفتر الكبير الذي يسجل فيه اسماء النزلاء ، ويدل مظهر الملازم هذا ، على حقارته ، على عز قديم وعظمة غابرة .. وعمله في نزل سيربا عمل معقد ، فهو ينوب عن « أنا فردريكوفا » امام السلطات .. ويمتحن الاولاد فيما تعلموه في المدرسة كل يوم ، ويسجل اسماء النزلاء ، ويدقق حسابات النزل . . ثم هو الى جانب ذلك يقرأ صحيفة الصباح بصوت مرتفع ، ويتكلم في السياسة .

وينام الملازم في اية حجرة تكون خالية ، فاذا حدث وكان النزل مليئاً نام على احد المقاعد في الصالة .

وكانت الارملة تسيطر على الملازم سيطرة تامة وطالما قالت له :

ـ تزوجني وسأعمل المستحيل من اجلك .. اشتري لك حذاء جديداً ، وبدلة جديدة ، وفي ايام العطلة اعيرك ساعة المرحوم زوجي بسلسلتها الذهبية .

ومع ان الاغراء كان شديداً غير ان الملازم كان دائماً يفضل حريته .

* * *

ومن الاشياء التي اعتادها زبائن نزل سربيا تلك المخاصمات الهائلة

التي تقوم بين صاحبة المنزل وبين الملازم ايفانوفتش . فقد كان بمساعدة ابن صاحبة المنزل يختلس كتباً لأحد النزلاء ويبيعها سراً .. أو ينتهز فرصة غياب « أنا » فيحتفظ بايجار بعض الغرف لنفسه . والاعجب من ذلك كله ، انه يغازل الخادمات .. وهنا كانت تقوم القيامة ، وتفتح ابواب الغرف ويظهر منها رؤوس النزلاء رجالاً ونساءً ، وينتهي الامر بطرد الملازم مشيعاً بالسباب والشتائم ، فاذا قاوم ضربه « ارسني » البواب الضخم ضربة قاسية تتورم لها عيناه ، ويدمى انفه .

وكانت « أنا » تشيعه الى الباب صارخة : اذهب أيها المنافق ، أيها اللص ! .. أأحرم أودي واطعمك ؟ .. ثم تسرقني وتفشني ؟ .. اذهب الى الجحيم .

فيردد اولادها الاربعة من ورائها : الى الجحيم الى الجحيم !..

ويحتج الملازم انه ضابط له كرامته ، ولا يصح ان يعامل هكذا . . فلا يجد لاحتجاجه ، إلا اهنة من افواه الجميع ، وصفقة الباب من ورائه .

* * *

ويعود الملازم ايفانوفتش كعادته بعد يومين أو ثلاثة ، يعود متورم الوجه بطيء الخطى ، يحمل بين يديه باقة من زهور الحدائق العامة .

وما كادت « أنا » تراه ، وهي تعد الغداء لأولادها ، حتى تهب في عنف ، ولكنه عنف هادىء ... فقد انابها الارق تلك الليالي التي قضاها الملازم بعيداً عنها .. وتملكتها الغيرة ، وورت من اعماق نفسها لو عاد .. قالت :

ـ لا ادري لِمَ ساءت اموري منذ رأيت وجهك الكئيب ، عندما كنت أعيش مع المرحوم زوجي ، كان كل شيء على ما يرام ، فلما جئت تعقدت الامور .. البواب لا يعود إلا سكراناً ، والخادمات

يسرقن الزبائن ، وأناس آخرون يستنزفون دمي ولا يعملون شيئاً .

وكان الملازم يعلم تماماً من تقصد « أنا » بقولها هذا ولكنه لم يحتج ، فان رائحة الطعام تثير كل حاسة من حواسه .

ووضعت « أنا » الصحون على المائدة ، واجلست طفليها الصغيرين ولكن الملازم اسرع بعيداً واغرق وجهه في دفتر الحسابات ، وانهمك في جمع الارقام بصوت مرتفع .. كأنه يعاف الطعام .

ولكن « أنا » دعته ملحة ، فتقدم الى المائدة في خطوات بطيئة ، فاختارت له قطعة لحم كبيرة ثم قالت : اروِ لنا إحدى اكاذيبك .. اراهن انك قضيت هذه الليالي الثلاث مع امرأة !..

فقال وهو يمضغ الطعام : أنتِ تصدقيني .. لقد همت على وجهي في الشوارع العن نفسي كلما تذكرت انني اهنت المرأة الوحيدة التي اعبدها .

فاحمر وجه « أنا » ولكنها قالت : هذه كذبة اخرى من اكاذيبك أيها اللعين .

ـ أنتِ لا تثقين بي .. ولكنني اقسم انني كنت اقضي الساعات تحت نافذتكِ هذه .. وكم تمنيت لو ان النار تشتعل في المنزل ، وحينذاك كنتِ ترين كيف اضحي بنفسي لانقاذك ... الا تصدقيني ؟ ما أتعسني ... ما أتعسني !..

وهنا اخرجت « أنا فريدريكوفا » بضع دراهم اعطتها لأحد طفليها الصغيرين وقالت : اسرع . اذهب الى فاسيلي فاسيليتين ، واشترِ زجاجة فودكا ، على ان تكون مثلجة .. اسرع .

وانتهى الطعام وفرغت زجاجة الفودكا حين جاء الابن المضطهد من ابناء « أنا » من المدرسة ، فالقى نظرة على المائدة وقال كعادته : ها . انتهزتم فرصة غيابي فأكلتم كل شيء . وتركتموني جائعاً كالكلب الجربان !

ولكن الام صاحت به قائلة : هاك بنسين واشترِ لك شيئاً من السوق .

ولكنه احاب في وقاحة : انتِ وايفانوفتش تأكلان اللحم كله . واذهب انا الى السوق ؟..

وصرخت امه في وجهه : اخرج . يا لك من وقح !..

وهنا دخلت « اليشكا » ابنة « أنا » الكبرى وهي فتاة في الثالثة عشرة من عمرها ، بدأ جسمها يتبلور متجهاً نحو الانوثة .

كان النزلاء الرجال في النزل يمنحونها قطع الشكولاته ، وطالما ادخلوها معهم الى حجراتهم .

ما كادت (اليشكا) ترى المائدة خاوية حتى ابتسمت وقالت :

ـ يظهر انني تأخرت ... اماه هل اذهب الى (يوجينا) .

ويوجينا عاهرة شقراء ضخمة الجثة تسكن الحجرة رقم ٥ وهي صديقة (اليشكا) الاولى .

وخرجت الفتاة وتركت امها والملازم وحيدين . . وكان الجو دافئاً وقد سرت نشوة الفودكا والطعام الدسم في رأس الملازم الذي كان يسكب كلمات الغرام في اذن الارملة ويداعب بساقه ساقها تحت المائدة ثم قال : الا توجد غرفة خالية ؟.. غرفة خالية يا عزيزتي (أنا) فأنا متعب .

وكانت الحجرة رقم ٥ خالية فذهب الملازم والارملة اليها ، واغلق الباب .

وقال الملازم وقد جلست (أنا) وايفانوفتش يقبلها وتقبله :

ـ عزيزتي (أنا) ان كنت تحبينني ، فابعثي بمن يأتيني ببعلبة سجائر .

ولكن (أنا) صاحت به قائلة : في وقت آخر . في وقت آخر .

وهبط ليل الربيع السريع ، وتسربت نسماته من النافذة تحمل عبير الزهور ، وفجأة سمعت طرقة على باب الحجرة رقم ٥ فقامت (أنا) هلعة عارية القدمين لتسمع صوت (ارسني) البواب يقول بصوت ثورغيور : هناك طالب يريد استئجار الغرفة .

فقام الملازم مسرعاً وارتدى ملابسه بسرعة عجيبة وخرجت (أنا) لتستقبل هذا التلميذ ، فاذا به شاب في عنفوان العمر ، شاحب الوجه دفع الاجرة مقدماً ، ثم اسرع الى الحجرة رقم ٥ ، اما الارملة فقد عادت الى حجرتها مشعثة الشعر ، وفي اثرها الملازم .

* * *

في حجرة (أنا فريدريكوفا) كانت (اليشكا) تطل طلة من النافذة ، وجلس الطفلان يحتسيان كؤوس الشاي ، بينما جلست الارملة والملازم على احد المقاعد العريضة .

وما كادت (أنا) تخرج من الحجرة لتحمل الى النزيل الجديد دواة حبر وريشة ، حتى تسلل الملازم نحو الفتاة (اليشكا) ثم همس في حنو :

ـ اليشكا فيمن تفكرين ؟ ..

فابتعدت عنه ، ولكنه رفع خصلات شعرها في سرعة وقبلها على عنقها الدقيق الناعم الملمس .

فقالت الفتاة دون ان تبتعد هذه المرة : سأخبر امي بكل شيء .

ولما عادت الام اخذ الملازم يتم قصة كان قد بدأها ، وكأن شيئاً لم يحدث .

* * *

في الغرفة رقم ٥ جلس الطالب الشاب على حافة السرير ، وامامه طاولة عليها شمعة مرتعشة النور ، واخذ يكتب في سرعة :

قضي الأمر .. وبعد ربع ساعة أو أقل سأطلق النار على رأسي، وأغادر هذا العالم الذي ما شعرت فيه بلحظة من السعادة . وليعلم رفاقي انني لم اخنهم ، ولكنني ارتعشت من ذلك الضابط الضخم الذي اخذ يصرخ في وجهي كثور هائج ، فلم استطع ان اقاوم ، فتغلبت عليّ طبيعة الجبن المتأصلة في نفسي .

نشأت لا اعرف لي ابا .. بل وجدت نفسي وامي كخدم في قصر كبير . وكنت العن نفسي ، والعن امي حين اراهـا تقوم بحركات بهلوانية ، وتقلد اصوات الحيوانات . لتظفر بقروش من اطفال لا يزيدون على عمري بشيء . . عشت في جو خانق من الاضطهاد ، وكان زملائي يسمونني في المدرسة « الاحدب » بسبب تلك الانحناءة المشؤوم في ظهري .

وأنا اعلم حقاً ان كلمة (خائن) كلمة فظيعة ، تحمل في طياتها معاني الغباء والجبن والدناءة . ولهذا يجب ان اموت .

لم يبقَ على الساعة التاسعة سوى خمس دقائق . . . ثم يحملني بحر الحياة الهائل بين امواجه الصاخبة الى عالم مجهول ، تجد روحي على شاطئه الحرية الكاملة غير منقوصة .

فما اروع هذا البحر !.. ربما فاتت امواجه على هذه المدينة فمحت اسمها من سجل الوجود .

الساعة التاسعة تماماً . . قضي الامر وحانت الساعة . . نسمت الريح الدافئة تلاعب ستائر الحجرة . . . وهناك « كلب ينبح من بعيد » .

وبسبب ما اقفل الطالب زجاجة الفودكا بعناية ، ثم صوب فوهة المسدس على جبهته ، وضغط على الزناد فهوى صريعاً .

وصاحت « أنا فريدريكوفا » في غرفتها : ما هذا ؟..

فقال الملازم : اغلب الظن ان الطالب قد انتحر . . . كنت أتوقع هذا .

واندفعت « أنا » الى الحجرة رقم ٥ فوجدت الباب مقفلاً من الداخل .

وبعد دقائق تجمع جمهور غفير على باب النزل وفي ردهته ، ثم جاء مفتش الامن ، وهو شاب فارع القوام في مقتل العمر .

وفتح باب الحجرة بقوة . وكانت الشمعة ما زالت موقدة ، وعلى الطاولة ساعة الطالب تبعث دقاتها الخفيفة ، بينما سقطت جثتـــه على الارض واغرقت رأسه في بركة من الدماء .

وقالت « أنا » : ما أتعس هذا الطالب .. وماذا فعلت له حتى يفعل معي هكذا .. أنا امرأة صالحة تكسب رزقها من عرق جبينها ، والآن سينشر اسمي في الجرائد .

وبعد دقائق انتهى التحقيق ، وهمّ مفتش الامن ان يغادر النزل ، ولكن « أنا » دعته ملحة ان يتناول طعام العشاء معهم .

وجلس مفتش الامن والملازم و « أنا » والفتاة « اليشكا » حول المائدة وكانت « أنا » تختار قطع اللحم السمين لمفتش الامن بينما كانت ساقها تداعب ساقه تحت المائدة .

وبعد ان التهموا كل ما كان على المائدة ، وافرغوا في اجوافهم عـــدة زجاجات من النبيذ المعتق الذي كان زوج « أنا » الراحل يحتفظ به . قاموا للرقص .

وحين هب مفتش الامن ليستأذن في الانصراف ، وبينما كان يلقي تحية المساء دخل ابن صاحبة النزل المضطهد . وما كاد يشاهد الصحون الفارغة على المائدة حتى قال :

ـ ها .. لقد انتهزتم فرصة غيابي فأكلتم كل شيء ، وتركتموني جائعاً كالكلب الجربان .

— ٩ —

في المنفى

عن تولستوى

كان يعيش في قرية « فلاديمير » ، تاجر شاب ، يدعى « ايفان ديمتريفتش اكزيونوف » ، وكان يدير حانوتين للتجـــارة ، ويملك منزلاً للسكن .

كان الرجل في فجر شبابه لطيفاً مرحاً محباً للغناء ، يتعاطى شرب الفودكا حتى يكاد يفقد سلطانه على نفسه ، ولكن منـذ ان تزوج عاف الخمرة ، فهو لا يقربها الا في بعض المناسبات .

وذات صباح من ايام فصل الصيف ، استفاق الرجل يود السفر الى العاصمة بداعي التجارة في اسواقها غير ان زوجته قالت له : لقد رأيت اليوم حلماً سيئاً يا ايفان أخشى منه عليك ، فلا تسافر اليوم .

وضحك الرجل من قولها ، وهواجس احلامها ، وقال : اتخشين عليّ من السفر الى العاصمة ؟ . . انني ادرك سر مخاوفك ، فانت تخشين ان اشرب الفودكا واعربد في المدينة .

فاجابت الزوجة : كلا . انني اعرف جيداً انك عفت الخمرة منذ ان تزوجنا ، ولكنني لا ادري ماذا يخيفني ، وكل ما عندي انني

رأيت حلماً سيئاً ، لقد رأيت فيما يرى النائم ، انك قد عدت من العاصمة ، وحينما نزعت قبعتك عن رأسك ، شاهدت شعرك وقد وخطه الشيب .

فضحك الرجل وقال : كل ما رأيت بشير خير ، سترين اني سأبيع بضاعتي بكاملها ، وسوف آتيك من اسواق العاصمة بهدايا ثمينة .

وهكذا ودع ايفان عائلته ، وركب عربته مسافراً .

وحين وصل ايفان الى منتصف الطريق كانت الشمس تنذر بالغروب ، فنزل فندقاً ليبيت فيه ليلته ، وفي الفندق رأى تاجراً صديقاً ، شربا معاً الشاي وتناولا طعام العشاء ، ثم افترق الرفيقان كل الى غرفته ، وكانت الغرفتان متجاورتين .

ومن عوائد اكزيونوف انه كان يستفيق من نومه باكراً ، رغبة باتمام السفر قبل ان تشتد حرارة الشمس اللافحة ، ولكي يمتع النفس في نسيم السحر العليل ، ولذا فقد استيقظ على خد الصباح وايقظ سائس الاصطبل وامره باعداد الجياد ، وقابل مدير الفندق الذي كان يبات في غرفة خارج الفندق ودفع له اجر المبيت ، ثم تابع سفره .

وبعد ان قطع خمسا وعشرين ميلا ، اوقف العربة لاطعام الجياد وغادرها اكزيونوف الى الفندق الذى وقفت العربة عنده ، وجلس في ردهته وطلب من الفندقي شرابا ساخناً ، واخرج قيثارته وراح يعزف عليها .

وعلى حين فجأة وصلت عربة الامن ذات اجراس تدق ، ونزل منها موظف حكومي وتبعه جنديان . واقترب الموظف من اكزيونوف وبادره بالاستجواب ، عمن يكون ، ومن اين هو ؟ ثم دعاه ليشرب

الشاي معه ، ولكن الموظف مضى في استجوابه سائلاً : اين قضيت ليلتك الماضية ؟.. اكنت وحدك ام مع زميل لك في التجارة ؟ وهل رأيت هذا التاجر في صباح اليوم ؟ ولِمَ رحلت عن الفندق قبل الفجر ؟..

واندهش الشاب لهذه الاسئلة ، ولكنه اجاب ذاكراً وقائع ما حدث . وانتهى من ذلك بقوله : لِمَ تستجوبني كأنما أنا لص أو قاطع طريق ؟ أنا رجل مسافر في عمل وليس هناك ما يدعو لاستجوابي .

وعندئذ دعا الموظف الجنديين قائلاً : أنا ضابط الجند في هذه المنطقة ، وأنا أسألك ، لأن التاجر الذي قضيت معه الليلة الماضية وجد مذبوحاً ، وواجبي الآن ان افتش حوائجك .

وحل الجنود والضابط متاع اكزيونوف وفحصوه . وعلى حين فجأة أخرج الضابط سكيناً من احدى الحقائب وصاح قائلاً : لمن هذه السكين ؟..

ونظر اكزيونوف ، وأذهله ان يرى سكيناً ملوثة بالدماء تخرج من حقائبه . وقال الضابط : من أين أتى الدم الى هذه السكين ؟..

وشاء اكزيونوف ان يجيب ولكنه لم يستطع وتلعثم قائلاً :

. لا ادري ؟ انها ليست لي .

وهنا قال الضابط : وجد التاجر هذا الصباح مذبوحاً ، وأنت الوحيد الذي يمكن ان يكون قد فعل هذا . فالفندق كان مغلقاً من الداخل ، ولم يكن به سواكما ثم هذه السكين ملوثة بالدماء نجدها في حقائبك ، ووجهك وحالك ينمّ عنك ! فقل لي كيف قتلته ، وكم من المال سرقت ؟..

وأقسم اكزيونوف انه لم يفعل شيئاً من ذلك وانه لم يرَ ذلك التاجر منذ ان شربا الشاي سوياً ، وانه لا يملك معه اكثر من

ثمانمائة الف روبل وهي ماله ، وان السكين ليست له .

ولكن صوته خانه ، ووجهه شحب لونه ، وارتعدت فرائصه كما لو كان مجرماً ، فأمر الضابط جنوده ، فشدوا وثاق اكزيونوف ، وحملوه الى العربة الحكومية وعندئذ سلم الاسير امره لله وبكى . وصودر ماله وبضاعته واقتيد الى اقرب مدينة فيها سجن . وسئل اهالي وتجار قرية فلاديمير عن سلوك اكزيونوف وعن اخلاقه ، فأجمع الناس على انه كان في فجر شبابه سكيراً يضيع وقته سدى إلا انه كان رجلاً طيباً .

وجاء يوم المحاكمة فأتهم انه قتل ذلك التاجر الذي كان من ريازان ، وسلب مبلغ عشرين الف من الروبلات .

واستولى على زوجته اليأس ، ولم تعد تدري ماذا تصدق ، وكان اطفالها صغاراً ، واصطحبت معها الى المدينة هؤلاء الصغار ولم يصرح لها اولو الامر برؤية زوجها ، ولكنها بعد رجاء وتوسل نالت الاذن بذلك . ولما رأت زوجها في ملابس السجن واغلاله بين زملائه من اللصوص والمجرمين ، مادت الارض تحت قدميها فهوت فاقدة الرشد ، وظلت كذلك بعض الوقت ، حتى افاقت فجمعت اطفالها واقتربت منه واخبرته انباء قرية فلاديمير وسألته عما حدث له فاطلعها على كل شيء واخيراً تساءلت قائلة :

ـ ماذا يمكن ان نفعل الآن ؟.

ـ يجب ان نلتمس من القيصر الا يعدم رجلاً بريئاً .

واخبرته زوجته انها رفعت التماساً الى القيصر ولكن الالتماس رفض . ولم يجب اكزيونوف بل اطرق برأسه نحو الارض .

وعندئذ قالت الزوجة :لم يكن عبثاً ما رأيته من انشعرك قد شاب اتذكر ؟ لم يكن من العدل سفرك ذلك اليوم .

وقالت وهي تعبث بشعره بأناملها : اصدق زوجتك النبـــأ يا عزيزي . ألست القاتل ؟..

وقال اكزيونوف : انت الاخرى يتطرق اليك الشك فيّ .

واخفى وجهه بين يديه وبكى ، وعندئذ جاء الجندي ليقول المرأة واطفالها ان يذهبوا . وودع اكزيونوف عائلته الوداع الاخير .

ولما انصرفت الزوجة واولادها . استعاد اكزيونوف ما دار بينه وبين زوجته ، ولما ذكر ان زوجته هي أيضاً تشك فيه اخذ يحدث نفسه :

ـ لا ريب ان الله فقط هو الذي يعلم الحقيقة ، فاليه وحده يجب ان اتجه ومنه وحده انتظر الرحمة .

وكفّ اكزيونوف عن الالتماسات والوساطة ، وودّع كل أمل واكتفى بالصلاة والدعاء .

وحكمت المحكمة على اكزيونوف بالنفي والعمل في المناجم بعد ان تم جلده ، وتشقق جلده ، وعولجت الجروح ، وسيق اخـــيراً الى سيبيريا مع سواه من المجرمين .

وعاش اكزيونوف ستة وعشرين عاماً في سيبيريا عيشة المجرمين ووخط الشيب شعر رأسه ، وطالت لحيته ، ولم يبقَ بعد ذلك المرح الطروب ، بل اضحى يشرب في بطء ويسير في ثقل ، ويتكلم نادراً ولا يضحك ، بل كان دائم الصلاة والدعاء .

وتعلم اكزيونوف في سجنه صناعة الاحذية ، واستطاع ان يكسب قدراً يسيراً من النقود ، فكان يشتري بها كتب وسير القديسين وكان يقرأها اذا سمح له ضوء السجن بذلك ، واذا جاء يوم الاحد يسعى للصلاة في كنيسة السجن ، فكان يقرأ المزامير ويرتل الانشيد وقد تغير اكزيونوف كل شيء غير ان صوته بقي حافظاً رقته وصفاء جماله .

وعطف عليه اولياء الامر في السجن لوداعته ، واحبه رفاقه السجناء ، واحترموه ، وكانوا اذا شاءوا ان يلتمسوا امراً من ولاة الامور جعلوا منه وسيطاً ورسولا لهم اليهم ، واذا ما دبت الشحناء بين السجناء ، حكموه فيما شجر بينهم وانقطعت اخبار عائلته شيئاً فشيئاً عنه ، ولم يعد يدري ماذا كانت زوجته وابناؤه بين الاحياء أم انهم ذاقوا حتفهم ولحقوا بالرفيق الأعلى .

وفي يوم وصلت عصبة من المجرمين ، وما ان حان المساء حتى اجتمع السجناء القدامى حول السجناء الجدد وامطروهم وابلاً من الاسئلة عن اوطانهم ، وعن الاسباب التي رفعت بهم الى السجن ، وجلس اكزيونوف بين الجالسين مرهف الآذان في تلهف وشوق لعله يقف على انباء بلدته .

وكان بين المجرمين الجدد شيخ في الستين من عمره طويل القامة قوي البنيان ، اخذ يقص قصته التي ادت الى محاكمته والحكم عليه .

ـ كل ما في الامر يا اصحاب اني حللت جواداً من عربته وضبطت ، وحوكمت بتهمة السرقة ، وقلت في دفاعي اني اخذت الجواد لأسرع في الذهاب الى البيت ، ثم اطلق سراحه ، هذا فضلا عن ان الحوذي صديقي . فقيل لي ولكنها سرقة ، وانت سارق الجواد الا انهم لم يحددوا كيف ولا اين سرقت الجواد . حقاً لقد اتيت اثماً كنت استحق من اجله ان اكون هنا منذ زمن بعيد ولكنني يومئذ لم اقع تحت طائلة القانون لاني لم اضبط ، والآن سأنفى لسبب تافه . ولكنني اكذب عليكم في هذا ، فقد كنت هنا في سيبيريا من قبل ولكنني لم ابق طويلا .

وقال احد السجناء : ومن اين انت ؟..

فاجاب قائلا : من فلاديمير فعائلتي منها واسمي « ماكار »

واحياناً بلقبوني « سيميونتش » .

فرفع اكزيونوف رأسه قائلا : خبرني يا سيميونتش عما اذا كنت تعلم شيئاً عن آل اكزيونوف التجار بفلاديمير ، وهل هم على قيد الحياة ؟..

ـ أتسأل انني اعلم عنهم شيئاً ؟.. طبعاً اعرفهم . فآل اكزيونوف اثرياء ولو ان اباهم في سيبيريا ، وهو مجرم مثلنا كما يبدو . واما انت فما كانت اسباب سجنك هنا ؟..

ولم يشأ اكزيونوف ان يتحدث عن حظه السيء ، فلم يزد على ان تنهد قائلاً : لقد قضيت هنا ستا وعشرين عاماً تكفيراً عن ذنوبي .

ـ اية ذنوب اقترفت ؟..

وقال اكزيونوف : لا بد اني كنت استحق ما تلقي .

وكان من الممكن ان لا يزيد شيئاً لولا ان رفاقه السجناء اخذوا يروون للسجناء الجدد كيف وصل اكزيونوف الى سيبيريا ، وكيف اتهم بقتل التاجر ، بينما المجرم شخص آخر ، ولكنه وضع سكينه بعد ارتكاب الجريمة في حقائب اكزيونوف ، فلذا حكم عليه بهذا السجن طويلا .

ولما سمع ما كار سيميونتش هذه القصة حدق بنظره نحو اكزيونوف وخبط على ركبته بيده قائلا :

ـ ولكن هذا عجيب وغريب حقاً . لقد تقدمت بك السنوات كثيراً يا جدي .

وتساءل الآخرون عن سبب عجبه ، وعما اذا كان قد رأى اكزيونوف من قبل ، ولكن ما كار سيميونتش لم يجب جوابا اكثر من قوله : العجيب ان يكون اجتماعنا في هذا المكان ايها الرجال !..

وجعلت هذه الكلمات اكزيونوف يتساءل عما اذا كان هذا الرجل

يعرف قاتل التاجر ولهذا قال :

ـ ربما تكون قد سمعت عن تلك القضية او شهدت فصولها ؟

وقال سيميونش : ان الشائعات كثيرة . وعلى كل فقد انقضى زمن طويل ، ولست اذكر كيف عرفت عنها ما عرفت . وتساءل اكزيونوف : اما علمت شيئاً عن قاتل التاجر ؟..

فضحك ما كار سيميونش وقال : ربما يكون قد وجدت السكين في حقيبته رغم انها قد تكون مدسوسة عليه ، ولا يكون مجرماً ، الا من ضبط كما يقول المثل . كيف يتأتى لاحد ان يضع سكيناً في حقيبتك وهي تحت رأسك ؟ والا لكنت قد استيقظت .

وهنا تأكد اكزيونوف من ان هذا الرجل هو قاتل التاجر ، فنهض وانصرف وقضى ليلة في أرق ، واحس بشقاء لا حـــد له ، وتراءت لعينيه صور شتى . كانت منها صورة زوجته كما كانت يوم ودعها عندما حان وقت سفره الى العاصمة . ورآها كما لو كانت امامه ، ثم رأى طفليه كما تركهما : احدهما بمعطفه الابيض الصغير ، وثانيهما على صدر امه .

وذكر كيف كان شاباً مرحاً ، وذكر كيف جلس في مدخل الفندق يعزف على القيثارة حين قبض عليه في وقت كان ذهنه خالياً مما يشغل الاذهان ، فراح يستعرض بمخيلته حوادث الستة والعشرين سنة التي انقرضت باثقالها وعذابها وقربته من الشيخوخة ، وهـدت منه كل قوى ، فاستعرض امام انظاره المكان الذي جلد فيه وكيف كان جلادوه يشدون عليه السلاسل ، فتراكمت عليه الاحزان والشقاء حتى تمنى الانتحار والتخلص من هذه الحياة الثقيلة .

وفكر اكزيونوف في ان عموم هذه المصائب التي حلت به هي من جراء ما ارتكب هذا المجرم من فعلة سيئة ، وبلغ غضبه على ما كار

سيميونش مبلغاً تاق معه الى الانتقام منه ، وان كلفه ذلك حياته .

واخذ يصلي طول ليله ، ولكن نفسه لم تهدأ ، وفي يومه التالي تجنب الاقتراب من ماكار سيميونش او النظر اليه .

ومضى اسبوعان على هذا النحو واكزيونوف لا يغمض له جفن ولا يدري ماذا يفعل .

وفي ليلة كان يسير في السجن رأى التراب يتطاير تحت رف من الرفوف التي يرقد عليها السجناء فوقف ليرى ما الخبر ، فاذا بماكار سيميونش يزحف خارجاً ومن ذلك المكان ينظر اليه في خوف .

وحاول اكزيونوف ان يمر به غاضاً بصره عنه ، ولكن ماكار امسك يده وانبأه انه قد حفر حفرة تحت الجدار ، وانه ينقل التراب الذي ينتج من الحفر الى حذائه ويفرغ هذا الحذاء خارجاً على الطريق كل يوم بعد ان يساق المجرمون الى حيث يعملون وانتهى بقوله :

ـ ما عليك ايها الشيخ الا ان تسكت والا فانهم سيجلدونني حتى الموت . ولكنني سأقتلك قبل ذلك .

فثار غضب اكزيونوف وهو ينظر الى عدوه وقال:

ـ ليست بي رغبة في الهرب ، ولا بك حاجة لقتلي . فقد قتلتني من زمن بعيد . اما عن افشائي سرك فهذا رهن بمشيئة الله .

وفي اليوم التالي لاحظ الحراس المرافقون للسجناء في ذهابهم الى العمل ان كلا من هؤلاء السجناء كان يصب من حذائه ترابـاً ، ففتشوا حنايا السجن وزواياه حتى عثروا بالسرداب المحفور ، فاستجوب السجناء للاهتداء الى الفاعل ، فانكر كل منهم معرفته لهذا العمل ، رفقاً منهم بماكار سيميونش اذ كانوا يعلمون انهم لو وشوا به لكان نصيبه الجلد حتى الموت . وعندئذ التفت حاكم السجن الى اكزيونوف

وقد كان يعرف فيه الاستقامة وقال :

ـ انت رجل صدق فاخبرني بالله من حفر الحفرة؟..

ووقف ماكار سيميونش هادئاً كأن الامر لا يعنيه ، وقد وجه بصره الى الحاكم الا من بعض لحظات كان يوجهها الى اكزيونوف واهتزت شفتا اكزيونوف وكذلك يداه وظل صامتاً طويلاً وسأل نفسه قائلاً : لماذا أستر على من دمر حياتي ؟ فليدفع ثمن ما قاسيت . ولكني ان كشفت امره ، الا يمكن ان يؤدى جلده الى موته ، وقد اكون مخطئاً في اشتباهي في امره فماذا يجديني اذن ؟ ..

واعاد الحاكم قوله : ايها الشيخ . قل لي الحق . من حفر النفق تحت الجدار ؟..

ونظر اكزيونوف الى ماكار سيميونش وقال : لا استطيع القول يا صاحب السعادة فالله لا يريد ذلك . افعل بي ما تشاء فانا بين يديك .

وذهبت محاولات الحاكم عبثاً في اكراه اكزيونوف على الكلام ولهذا كف عن هذا الامر .

وفي ذلك المساء كان اكزيونوف راقداً في فراشه بين النوم واليقظة ، حين جاء شخص يسعى في هدوء وجلس على حافة الفراش وامعن اكزيونوف النظر في القادم فتبين فيه ماكار سيميونش وقال له : ماذا تريد مني ؟ ولماذا جئت ؟..

ولكن ماكار ظل صامتاً ، ولهذا جلس اكزيونوف وقال :

ـ ماذا تريد ؟ اذهب عني والا دعوت الحارس .

وانحنى ماكار سيميونش على اكزيونوف وهمس :

ـ اصفح عني يا ايفان ديمتريش !

فقال اكزيونوف : من اجل ماذا ؟..

ـ انا قاتل التاجر ، ولقد اخبأت السكين في حقيبتك كنت اريد قتلك انت الآخر ، ولكني سمعت ضوضاء خارج حجرتك لهذا اخبأت السكين في حقيبتك وهربت من النافذة .

وظل اكزيونوف صامتاً ولم يدر ما يقول وانحدر ماكار من جلسته وركع على الارض قائلا :

ـ ايفان دمتريش ! اصفح عني حباً بالله . اصفح عني . سأعترف باني قاتل ذلك التاجر فيفرج عنك وتعود الى ذويك .

ـ سهل عليك ان تقولها ، ولكني قاسيت بسببك ستا وعشرين عاماً . اين اذهب الآن ؟ ان امرأتي قد ماتت ، واطفالي نسوني ، فليس لي من اذهب اليه .

ولم ينهض ماكار ولكنه عفر رأسه بالارض وقال :

ـ اصفح عني يا ايفان دمتريش . لم يكن احتمالي الجلد الذي جلدته باشق من رؤيتك الآن ، ومع ذلك اخذتك الشفقة بي فلم تخبرهم عني . اصفح عني فاني تعس .

واخذ ماكار يبكي . وعندئذ بكى اكزيونوف هو الآخر ، وقال : سامحك الله . فقد اكون اتعس منك الف مرة .

وأحس قلبه وقد ارتاح لهذه الكلمات ، ولم تعد به رغبة للعودة الى منزله ولا ارادة لمغادرة السجن ، بل امسى يرجو دنو ساعة موته .

ورغم كل ما قاله اكزيونوف ، فان ماكار سيعيو بنفس اعترف بجريمته .

ولكن ما كاد يصدر قرار الافراج عن اكزيونوف ، حتى كان الرجل قد فارق الحياة ، ولحق بالرفيق الاعلى .

— ١٠ —

المستكشف العظيم

قصة روسية معاصرة

عن ايليا الفا واينجيني بتروف

الأرض الأرض !..

بهذا الهتاف صاح الملاح الذي تسلق ذروة السارية ، وانتهت الآن هذه الرحلة المخيفة الخطرة بظهور الارض .

وتناول خرستوف كولومب المنظار المقرب بيد ترتعش ، وقال لزملائه الملاحين : ارى سلسلة من الجبال ، ولكن الغريب ان بها نوافذ ، ولم اسمع من قبل عن جبال لها نوافذ !..

وصاح احد الملاحين : هذا احد قوارب الوطنيين !..

وما هي غير لحظات حتى التصق قارب بالسفينة ، وصعد اثنان من أهل الأرض الجديدة ، فاعتليا السلم في صمت ومشيا مسرعين نحو المستكشف العظيم وفي يد كل منهما ورقة وقلم .

وبدأ كولومب الحديث فقال : اريد ان استكشف بلادكم باسم صاحب الجلالة الاسبانية الملكة ايزابيلا ، واعلن ان هذه البلاد صارت من ممتلكاتها ...

قال احد الامريكيين ، هذا حسن ، ولكن نرجو ان تكتب

هنا اسمك ، وجنسيتك ، وحالتك الاجتماعية ، واقراراً عما اذا كنت مصاباً بمرض التراخوما ؟.. وهل لك مأرب سياسي في قلب نظـــام الحكومة الامريكية ، وهل انت عاقل ام ابله ؟..

ووضع كولومب يده على مقبض سيفه ، وكاد يستله ، ولكن لما كان الواقع انه غير ابله ، هدأ من ثورة انفعاله وقال لاحد زملائه :

ـ يجب ان لا تثير الوطنيين ، فانهم كالاطفال ، وقد عرفت غرابة احوالهم .

وقال الامريكي : هل لديك تذكرة للعودة ، وخمسمائة دولار ؟..

فاجاب المستكشف العظيم مستفهما : هل لي ان اسأل ما هو الدولار ؟..

قال الامريكي : لقد قررت انك غير ابله ، ولكنك مع ذلك لا تعرف الدولار . قل ما الذي تريده هنا ؟..

ـ اريد استكشاف امريكا !..

ـ هل قلت بدعابة ؟..

ـ دعابة !؟.. انني لم اسمع هذه اللفظة من قبل .

فاطال الامريكيان نحوه النظر ثم قالا : ألا تعرف الدعابة ؟..

ـ لا .

ـ ومع ذلك تريد استكشاف امريكا ؟.. انني اود ان اكون في مثل مركزك يا مستر كولومب .

ـ ما الذي تعني ؟ الا تريان انه في وسعي استكشاف هذه الارض الغنية الخصبة التي غادرت من اجل استكشافها جنوا ! قال احـــد الامريكيين : انك لن تستطيع اي شيء بغير دعابة .

عند هذا الحد من الحديث ، كانت سفينة المستكشف قد وصلت الى الشاطيء ، وكان الفصل فصل الخريف ، والجو فيه جميل في

هذا المكان ، ونزل كولومب الى الشاطىء وفي يده حقيبة محـــلوءة بالحبوب يريد ان يبادل الوطنيين بها على ما بأرضهم من الذهب والعاج . وفي اليد الاخرى علم الدولة الاسبانية . وكانت دهشته شديدة لما رأى الارض مغطـــاة بالاسفلت وليست مفروشة بالذهب والجواهر ، واقبل نحوه عدد وافر من الناس يحمل بعضهم آلات فوتوغرافية ، والبعض الآخر آلات سينمائية ، وفيهم من يحمل ورقة وقلماً ويتأهب لحديث صحفي ، وبين هؤلاء الاهالي عدد غير قليل من السيدات .

قالت احداهن وقد رأت العلم الاسباني في يد كولومب : هـذا على ما يظهر اعلان على مطعم اسباني ؟..

ولم يعبأ كولومب بشيء مما يرى ، لأنه كان مشغولاً بمهمة فاشلة هي ان يحفر بسيفه حفرة في الطريق ليركز فيها العـــلم ، وقد أبى الاسفلت ان يطاوع سيفه فانكسر السيف ، فاضطر الى الاكتفـــاء برفعه على يمنى يديه ، وقد خلت اليد الاخرى من الحقيبة التي كان يحملها ، لأن موظف الجمارك كان قد صادرها .

وفي هذه الاثنـــاء كان الامريكيون الذين يراهم في الطريق يتزايدون ، حتى بلغوا عشرات الالوف ، وهم اثناء سيره يأكلون ويشربون ويمزحون ولا يحسون انهم استكشفوا .

وقال كولومب في مرارة : لقد عبرت المحيط ، وخاطرت بحياتي ومع ذلك فلا يعبأ بي اي انسان .

واستسمح كولومب منهم ، واقترب نحو صاحبه وقال في زهو : انا خرستوف كولومب !.

ـ ماذا تقول ؟..

ـ خرستوف كولومب .

فقال الرجل نافد الصبر : « تهج » .

فأخذ كولومب يتهجى ، بينما قال الامريكي :

ـ اظنني قد تذكرت . هل انت تاجر آلات ؟..

قال كولومب وقد نفذ صبره هو الآخر : انا استكشفت امريكا .

ـ لاتقل كلاماً مثل هذا ، لاريب انك تمزح . اي متى استكشفتها ؟

ـ الآن فقط . . . منذ خمس دقائق .

ـ هذه مسألة هامة ، ولكن ماهي مهمتك الحقيقية يا مستر كولومب

وقال كولومب بزهو وخيلاء : اظنني استحق بعض التقدير ؟ . .

فقال الأمريكي : ألم يكن في استقبالك احد ؟ . .

ـ كلا . ويظهر ان الأهالي لم يفطنوا لي أني آت لاستكشافهم .

ـ هل ارسلت اليهم تلغرافاً ؟ . . تقولا ؟ . . لقد كان الواجب ان تراسلهم اولاً ، وتبعث بمئات من صورك لنشرها في الصحف . وتبعث من يسبقك بشائعات ، وتشنيعات وفكاهات ، هل تظن ايها الرجل ان في وسعك استكشاف أناس دون ان تنشر بينهم دعاية ؟ .

ـ هذه ثاني مرة اسمع فيها هذه الكلمة . ماهي الدعاية ؟ هل هي قربان وثني ؟ . .

نظر الامريكي نظرة اشفاق الى الاجنبي ، وقال : كيف اشرح لك الدعاية ؟ انـك لا بد تعرفها فهي الدعاية . . اجد من واجبي ان اساعدك فاني مشفق عليك .

وكان الرجل عند قوله ، فقاد كولومب الى فندق ، وقاده الى غرفة في الطابق الثالث والخمسين ، وتركه وحده فيها على ان يعود اليه بعد ان يصنع من اجله شيئاً .

وبعد نصف ساعة عاد ذلك الأمريـــكي يتبعه اثنان من مواطنيه ، احدهما يحمل « الملكة » بغير انقطاع ، والآخر يدير لولباً في آلة تصوير .

ابتسم « اضحك » ارفع رأسك . التفت هكذا . ها ها ها . اضحك كما اضحك » واضطر كولومب الى الضحك بعد ان رأى حامل الآلة التصويرية يضحك مثل صهيل الحصان لكن ضحكات كولومب كانت هستيرية من شدة الغيظ .

وانتهى المصور من لقط المناظر ، وجاء زميله فألقى هذه الاسئلة ، واستملى الاجابات :

ـ متى استكشفت امريكا يا مستر كولان ؟

ـ اليوم واسمي كولومب .

ـ انني لم احصل بعد على كثير من هذه الارض الخصبة ، لكي احكم عليها .

ـ قل لي يا مستر كولان . ما هي الاشياء الاربعة الاولى التي استثارت اهتمامك في نيويورك ؟

ـ من الصعب . . .

تأفف الصحفي ، فقد اعتاد عقد الاحاديث مع الملاكمين ، ونجوم السينما ، والسياسيين ، ولكنه لم ير غبياً بليداً مثل كولومب ، ففكر في تيسير الأمر بالقاء اسئلة سهلة :

ـ قل لي يا مستر كولان . ما هما الشيئان اللذان لم تحبهما ؟ . .

فتنهد كولومب فانه لم ير مضايقة مثل الحرج الذي هو فيه الآن وقال :

ـ الا استطيع ان اعمل شيئاً هنا بغير دعاية ؟ . .

فضاق صدر الصحفي ، وصاح : أأنت مجنون يا مستر كولان ؟ .

اما كونك اكتشفت امريكا فهذا شيء غيرهام ، ولكن الشيء الهام ان امريكا اكتشفتك ! . . قل لي يا مستر كولان ما رأيك في الفتيات الامريكيات ؟ . .

ولم ينتظر الصحفي الامريكي الجواب ، بل استمر يكتب وهو بين لحظة وأخرى يدخن لفافته ، وينفخ الدخان في الهواء وينظر الى السماء ، كأنما يستلهمها الوحي ، ويعاود استئناف الاسئلة وتدوين الاجابات من عنده ، واخيراً صاح بحوذي « اوكيه » ومد يده لمصافحة كولومب وثبت على ظهره وخرج .

وقال الامريكي الآخر : الآن يامستر كولومب تستطيع الخروج للتجول في شوارع نيويورك ، وقد تقضي السهرة في مسرح او دار السينما . الا تريد ان تعرف البلد الذي استكشفته ؟ لكن ليس لك ان تحمل العلم الاسباني . فاتركه هنا .

واخطر كولومب السكين الى السير بسرعة صاحبه في وسط الزحام ، فشعر بأنه كالقطة الشاردة ، وبأنه يمسح بفرو معطفه جوارب الناس عن يمينه ، وعن يساره . وقضى السهرة معه كذلك في اماكن لم يكن يتخيلها ، ثم عاد الى سريره في الفندق متعباً مجهوداً ، فاستلقى على الفراش واستغرق في نوم عميق .

وفي صباح اليوم التالي ، ايقظه صديقه الامريكي المتطوع لخدمته واطلعه على عدد من جريدة جاء في صحيفتها الخامسة والثمانين ، حديث معه عدة صور له . وقرأ له الحديث ، فانزعج لهذا الحديث الطويل الذي نسب اليه فما هو بالذي قاله ، ولا بالذي يفهمه . وكان نص ما جاء بالمقال : انه يكاد يجن حباً بالفتيات الامريكيات . وانه يفضلهن على كل نساء العالم ، وانه مفتون على وجه الخصوص بالمثلة الحبشية « نيجوسى سمبلاسي » وانه سيلتحق بجامعة هارفارد ليتعلم الجغرافيا .

هذا النبيل من أهل جنوا أراد أن يفتح فمه مجتمعاً ، ولكن وفداً من الامريكيين والامريكيات دخل فجأة ، ولم يكلف احد منهم نفسه مشقة الدعاية للبروتوكول والاتيكيت ، بل توجهوا الغاية مباشرة بغير مقدمات .

وكانت الدعاية قد سرت بمفعولها السحري العجيب ، فجاء هذا الوفد من مندوبي شركات الافلام ليعرض على كولومب الاشتغال بالتمثيل في هوليود .

قال متحدثهم : ان الفيلم الذي نريد ان تشترك فيه تاريخي هو فيلم « امريكو فسبوتشي » وستمثل أنت دور امريكو انه سينجح نجاحاً عظيما فهل توافق ؟ اننا بالطبع سنتحدث طويلاً عن التفاصيل ومعنا السناريو ستعرضه عليك لقد اقتبسنا معظم الحوار من رواية الكونت مونتوكريستو لاسكندر ديماس .

وان هذا غير مهم ، فالمهم بالموضوع هو اننا اقتبسنا حوادث القصة ، وصورنا مشاهدها فجاءت مطابقة لقصة استكشاف امريكا .

فتمايل كولومب وتململ غيظاً وهو يتمتم بصوت غير واضح العبارات واغلب الظن انه كان يبتهل الى الله ، غير ان أحدهم تابع الحديث قائلا :

ـ وهكذا سيتاح لك القيام بتمثيل دور « امريكو فيسبوثي » الذي تعشقه « ايزابيلا » ملكة اسبانيا ، وتتفاني في حبه ، أما هو فلا يبادلها هذا الحب ، لأنه مغرم الى حد الجنون بالاميرة الروسية « جريشكا » غير ان الكردينال « ريشليو » اغرى « فاسكودي غاما » فدبر الامر بمعونة « اللايدي هاملتون » ولذا تم ارسالك الى امريكا . انها لعبة متفق عليها ، ومؤامرة جهنمية نسجت خيوطها حولك . ولذا تشتد المخاطر وتتنشط المغامرات ، فتشتبك بالعراك مع قراصنة البحر ، وتقاتل كالابطال الصناديد وتستغرق مشاهد القتال التي ستظهر بها حول ثلاثمائة متر من المشاهد المثيرة المتتابعة . من الممكن ان تجد صعوبة كلية في قيامك بدورك التمثيلي ، ولكن هذا غير مهم .

فصاح مستر كولومب من الغيظ بصوت اجش :

ـ أين المهم إذن ؟..

ـ الدعاية ؟ الدعاية فقط هي اساس كل مشروع ؛ فهي التي تعرّف الجمهور المشاهد عليك في طول البلاد وعرضها . فتزداد شهرتك ويسطع اسمك في الآفاق ، فتقبل على مشاهدتك الجماهير الشعبية ، تشاهد « فلمك » المليء بالمخاطر والمغامرات العنيفة ؛ وهكذا يفخرون بك كفاتح عظيم ومستكشف خطير ، بلغ من العلم شأواً عظيماً ، جاء يقاتل القراصنة في البحار ، ويعرض نفسه للمخاطر والموت في سبيل اكتشاف بلاد امريكا . ولكن هذا ليس بذي أهمية . فالشيء المهم هو قتالك مع القراصنة ، قتال مستميت تستعمل به الرماح والقؤوس ، والنبال والسيوف ، وان هوليود بلاد السينما غنية كثيراً في مثل هذه المعدات الحربية المهيئة لظهور افلام تمثل العصور الوسطى . وان هذا الدور العظيم الذي ستلعبه سيجبرك على حلاقة لحيتك ؛ اذ ليس من الروم للحية وللشاربين ، لأن الجمهور المشاهد قد مـــلّ من اللحى والشوارب بقدر ما شاهدها في الافلام الروسية .

ولهذه الغاية يجب ان تحلق ، ثم يجب ان توقع لنا عقد اتفاق لمدة شهر ونصف الشهر لننجز التصوير . هل توافق على ذلك ؟..

فأجاب خرستوف كولومب وقد بدا عزيز العرض : « اوكي » أعني اتفقنا .

وحين اوى مستر كولومب الى غرفته في ساعة متأخرة من الليل جلس الى طاولته يدوّن تقريراً مفصلاً عن رحلته التي تكللت بالنجاح باستكشاف بلاد امريكا الجديدة ، ليرسله الى جلالة ملكة اسبانيا ايزابيلا .

« لقد جلت الديار والامصـــار ، ولاقيت الاهوال في الاسفار والبحار ، وجبت الآفاق في الطول والعرض ، ولكن عينيّ لم تقع على ما وقعت عليه من اشياء ، واذنيّ لم تسمعا مطلقاً بغرائب تماثل ما سمعت عن عجائب الشعب الامريكي .

ان الاميركيين لا يحسنون احتمال الصمت والسكون ابداً ، ولذا فقد أنشأوا الشوارع الفسيحة في سائر ارجاء المدينة . ليتلهوا ويتمتعوا بالصخب والضوضاء حسب هواهم . وهذه الشوارع مرتفعة جداً ، ومرتكزة على قوائم من حديد ، تجري عليها قاطرات سريعة التنقل ، لا يقف سيرها ولا يخمد ضوضاؤها وصخبها ليلا ونهاراً ، ولذا اصبح الصخب والضوضاء شيئاً غير مقلق ، بل شيئاً محبباً الى قلوب الاهلين لا يؤذي سماعهم بقدر ما اعتادوا عليه .

لم اتملك حتى الآن رغم تعمقي في دراسة الاشياء ، ومعرفتي باصول الاحوال ان اقرر اذا كان الشعب الاميركي من الشعوب الذين يأكلون لحوم البشر . ولكن من الثابت الواضح انهم يأكلون لحوم الكلاب المطبوخة . وقد شاهدت بعيني رأسي أناساً عديدين يأكلون لحم الكلاب ويتشدقون فيما بينهم عن طيب مذاقها وعن فوائد لحمها الصحي .

ان رائحة البنزين ، رائحة تفوح من وجه كل انسان ، على غرار ما تعبق الروائح العطرية من شعوب باريس ، حتى ان جميع الشوارع غارقة بهذه الرائحة اللعينة ، التي تعاف الانوف تنشقها ، ولكن على ما اظن ، ان انوف الاميركيين لا تزعجهم هذه الرائحة الكريهة والا لما اقبل عليها جميع الفتيات الحسناوات ، فانهن يتعطرن بالبنزين ولا يتضايقن منه مطلقاً .

انني اؤكد ان الاميركيين أناس زنادقة وكفرة ، وهذا ما اوضحه لي تعداد اديانهم ومذاهبهم ، وكثرة آلهتهم . فقد نشروا اسماء اربابهم على لوحات كتبت بأحرف من نار ونور ، وعلقت معظمها فوق سطوح المباني المرتفعة ، وعلى جدران المنازل التي سودتها سحب الآلات والمصانع ، وعلى ابواب المحلات التجارية ، ويلوح لي ان خير

معبود عندهم والاكثر انتشاراً هو ربهم الاعظم ، وعلى ما اذكر اسمه يدعى « كوكا كولا » . وهكذا فانهم يعبدون رب الصيدلة واسمه « السودا » ورب « الكافتريا » وخير رب يعبدونه بكثرة متزايدة هو الاله « فورد » صاحب رائحة البنزين ، ويبدو انه مثل زيوس آله اليونان بالنسبة اليهم .

ان الاميركيين شرهون بغرابة هائلة ، منهم يتغذون دائماً وفي الشوارع اكلة لا طعم لها ولا مذاق يدعونها « الملكة » .

ومن سوء الحظ ان الحضارة لم تجد مكانها اللائق في نفوسهم فاذا قورن الاميركيون بالخطوات الجنونية التي انطلقت بها الحياة الاسبانية الحديثة لوجدناهم بطيئين جداً ، بل ان السير على الاقدام يبدو وسيلة سريعة جداً . ولذا فقد استعملوا عوضاً عن ذلك عدة اشياء ممزوجة ببعضها تسير بسرعة وتخترق الشوارع ويسمونها « سيارات » وهكذا تدركين انهم يتحاورن بسرعة فائقة ، ويظنون ان سرعتهم هذه توصلهم الى السعادة .

وان الذي اذهلني واطار لبي الاحتفالات التي يقيمونها في كل مساء في مكان يسمونه « برداوي » فيتوافدون عليه جماعات ويتطاحنون ويتسابقون . وكل ذلك كي يجتمعوا في منزل فسيح الجنبات يسمونه « بالمسرح الفكاهي » .

وهناك يصعد بعض نساء الوطن على منصة عالية اسمها « المسرح » يخلعن عن اجسادهن ثيابهن وذلك على اصوات قرع الطبول ، وقلما شاهدت مثل هذه المشاهد فقط في بلاد البرابرة الهمجية .

وحين يرتفع في ارجاء المنزل اصوات « الكلارينيت » الحزينة يختلط الحابل بالنابل ، يصفقون ويلوحون بايديهم بالهواء كالاطفال .

ولا تكاد النساء يتخلصن من ملابسهن تماماً ، والوطنيون يحدقون بهن

بعيون ظمأى شرهة شرسة كالذئاب حين تحوم حول الفريسة ، تشعر النساء بحمى الاجساد الملتهبة ، والانفاس المتصاعدة فيسدلن الستار لسبب اجهله ، وعندئذ يهب الجميع وهم يبتسمون ويقهقهون ويعودون ادراجهم من حيث اتوا .

هذا ما استطعت ان الخصه لك عن مشاهداتي حالياً ، وسأوافيك تباعاً عن الاشياء المرموقة التي اراها في هذه البلاد العجيبة ، والتي لا تخطر على بال احد منا في اسبانيا ، حتى ولا على بال الابالسة والشياطين .

وختاماً ابلغك تحياتي ، مع العلم ان حياتي في امان على رغم تطاحن الاميركيين الذي اشعر به ، فهو بلا ريب تطاحن مبعثه الحب والخبز . تطاحن قلوب اقفرت من الحنان والعطف وحل عوضاً عنها الدولار النحاسي والتنازع للبقاء .

— ١١ —

الحب والخبز

عن تشيخوف

في يوم ما كانت « باشا » لا تزال في شرخ صباها ، تتفجر حيوية وشباباً ، ونضارة وجمالاً ، وكان لا يزال صوتها اكثر قوة وحناناً ، وهي تجلس على اريكة وثيرة والى قربها خليلها وعشيقها « نيقولا بتروفتش كولباكوف » وذلك في ردهة منزلها الصيفي .

وكانت لفحات الجو حارة الى درجة لا تطاق وكان العاشقان قد انتهيا من تناول غذائهما بعد ان شربا من الخمرة زجاجة كاملة، وقد اخذا يشعران بالضيق ، بالضيق الشديد وينظران اللحظة التي تخف فيها وطأة حرارة النهار ، ليخرجا معاً في نزهة ، وعلى غير انتظار منهما ، سمعا طرقات تدوي على باب المنزل ، ولما كان كولباكوف قد جلس خالعاً سترته ، هب من مكانه وهو ينظر الى « باشا » في حيرة وتساؤل ، دون ان يفوه بكلمة غير ان الغانية « باشا » نبهت الى انتباه من حيرة ، فقالت :

ـ لا داعي للحيرة ، اغلب الظن ان الطارق ساعي البريد او احدى زميلاتي .

ولم يكن (كولباكوف) يهتم بأن يراه ساعي البريد أو أن

تراه امرأة من رفيقات (باشا) على مثل هذا المظهر ، ولكن من باب الاحتياط جمع ملابسه واتجه الى الغرفة المجاورة ، بينما خفت(باشا) الى الباب ، ولم تكد تفتحه حتى عرتها امارات الدهشة والحيرة .

ان الماثل الآن امامها لم يكن ساعي البريد ، ولا فتاة من زميلاتها بل انها امرأة مجهولة ، صبية وحسناء ، ترتدي ثيابا تنم على ملابس العائلات الشريفة ، وتجمع تلك الظواهر على انها احدى اولئك السيدات .

كانت تلك المرأة الغريبة مكفهرة المحيا ، شاحبة ، وتتنفس في عسر وثقل كأنما هي قد صعدت ركضا درجات سلم المنزل الطويل .

سألتها باشا : ما الأمر يا سيدتي !.

فلم تحر السيدة جواباً في الحال ، بل تقدمت خطوة الى الامام وراحت تتميز اثاث الغرفة ومحتوياتها ، ثم اتخذت مقعداً لها جلست عليه ، جلسة المضنى المتعب الذي ينشد الراحة ، أو كالمريض الذي لا يستطيع الوقوف على قدميه .

وابتدأت شفتاها تتراقص في ارتجاف فترة طويلة وهي تحاول عبثاً ان تتكلم ، واخيراً قالت وهي ترفع عينيها الكبيرتين المحمرتين من اثر البكاء نحو باشا : هل زوجي هنا ؟..

فهمست (باشا) في ذعر وقد صدمتها المفاجأة حتى جعلتها تستحيل الى قطع من الثلج .

– زوج ؟ وكررت تساؤلها مرة اخرى وقد اخذت ترتجف ، أي زوج ؟

– زوجي انا . نيقولا بتروفتش كولباكوف .

– لا ... لا ... يا سيدة .

وانقضت فترة من الصمت ، ومرت السيدة بمنديلها على شفتيها

الشاحبتين عدة مرار لتخفي ارتقاصها وارتجافها وتتمكن بتلك الوسيلة من تهدئة اعصابها الثائرة ، بينما وقفت « باشا » امامها بغير حراك كأنها عامود من رخام ، وظلت تحدق النظر اليها في دهشة وجزع .

وعادت المرأة الى الحديث ، وكان حديثها في هذه المرة حازماً وقوياً ، وكانت تبتسم في سخرية أليمة .

ـ إذن فانت تقولين انه ليس هنا ؟..

ـ أنا ... أنا لا أعرف عن أي شيء تسألين .

فرمقتها المرأة بنظرة كراهية ومقت واشمئزاز وهي تقول : سافلة. حقيرة .. منحطة .. نعم نعم .. انت سافلة وحقيرة ، وانه ليسرني ويسعدني ان اقول لك ذلك في وجهك .

وشعرت « باشا » ان هذه السيدة ذات الثوب الاسود ، والعينين الغاضبتين والاصابع الرقيقة ، تخفي سراً رهيباً مروعاً غير منتظر .

وشعرت في حضرتها وامامها بشيء من الذلة والهوان ، واحست بخجل شديد من مظهرها وخاصة منظر شفتيها السميكتين المصبوغتين باللون الاحمر الفاقع ، ومنظر انفها الذي تبدو فيه آثار مرض الجدري وكتلة الشعر المنسدلة على جبهتها .

وخيل اليها انها لو كانت اقل سمنة ، ولو لم يعتلي وجهها بالمساحيق ، ولو لم تكن تلك الخصلة من الشعر مدلاة في مقدمة رأسها لاستطاعت ان تخفي الحقيقة المرة وهي انها امرأة « غير محترمة » ولما شعرت بذلك الخوف وذلك الرعب اللذين تشعر بهما الآن . ولو وقفت امام تلك المرأة المجهولة وقفة اخرى غير وقفتها هذه .

ـ أين زوجي ؟.. ان وجوده هنا أو عدمه وجوده أمر لا يعنيني في الواقع وما جئت من اجل هذا . ولكن يجب ان اقول لك ان النقود اختفت وانهم يبحثون الآن عمن ليقولا بقروقش .

ونهضت السيدة من جلسها ، وراحت تدرع الغرفة في اضطراب وكانت « باشا » قد بدت عليها علامات الرعب الذي شل تفكيرها حتى لم تعد تفهم شيئاً .

وعادت السيدة الى الحديث .

ـ انهم سيعثرون عليه اليوم ويعتقلونه ، وسيزجون به في السجن .

وهنا ندت عنها زفرة كأنها صرخة صادرة من أعماق القلب .

ـ اني اعرف من جلب عليه كل هذا .. اعرف من وضعه في هذا الموقف الحرج . . مخلوقة كريهة وضيعة .. مخلوقة فاجرة وبائعة هيام مرتزقة .

وكانت السيدة تنطق بهذه الكلمات ، بينما تتقلص شفتاها وانفها تقلصات الاشمئزاز ، واستمرت في حديثها :

ـ انني في مأزق حرج أليم ، ولا معين لي في مصابي ، هل تسمعين أيتها المرأة الوضيعة ، انني دون معين ، وأنت أقوى مني ، ولكن هناك واحد سيعينني وينصرني عليك ، هناك واحد سيقف في صفي وينقذني واطفالي من شر موبقاتك .. انه الرب الذي يسمع ويرى .. انه ارحم الراحمين وأعدل العادلين ، وسيعاقبك على كل دمعة ذرفتها عيناي ، وعلى كل ليلة مسهدة قضيتها في فراشي أتألم حتى مطلع الفجر .. سيحين الوقت الذي تضطرين فيه الى التفكير في امري وفيما سببته لي .

وعاد الصمت مرة ثانية وعادت السيدة الى السير في الغرفة وهي تدعك يديها بينما اخذت « باشا » تنظر اليها في وجوم ، وكأنها تنظر الى الفضاء العريض . انها لا تدرك شيئاً ، ولا تفهم شيئاً ، غير انها تشعر بان شيئاً فظيعاً سيحدث .

ـ انني لا ادرك شيئاً عما تتحدثين به .

قالت ذلك ثم انفجرت باكية .. فلم تكد السيدة تسمع قولها هذا حتى صاحت بها في عنف ، وقد لمع بريق الغضب في عينيها :

ـ انك تكذبين .. انني اعرف كل شيء ، اعرف انه قضى ايام الشهر الاخير كلها في صحبتك .

ـ وماذا في ذلك ؟ أي ذنب لي في ما قد حدث . ان رجالاً كثيرين يزورونني ، ولكني لا أرغم احداً على المجيء إلي . انه حرّ في اموره ويستطيع ان يتصرف بما يرضيه .

ـ قلت لك انهم اكتشفوا ضياع نقود . انه اختلس النقود من المكتب الذي يعمل به . فعل ذلك من أجل ... انك امرأة لا مبدأ لك ولا عقيدة ، انك تعيشين لغاية واحدة وهي الحاق الأذى بالآخرين.. هذه هي غايتك ومهمتك في الحياة ، غير ان الانسان ليس بامكانه ان يتصور انك انحدرت ونزلت الى المستوى السيء الذي يجردك من كل اثر من اثار المشاعر الانسانية . اذا اعتقل زوجي وحكم عليه بالسجن الرهيب ، ماذا تكون النتيجة لي ولأطفالي ؟.. اننا سنموت جوعاً .. الاطفال وأنا .. افهمي ذلك .. ومع هذا فهناك فرصة لانقاذنا من الدمار والعار ، اذا قدمت لهم الثمانمائة روبل المفقودة اليوم ، فانهم سيتركونه وشأنه . انها ثمانمائة روبل .

وهمست (باشا) في رقة ، وفي صوت خفيض قائلة : ثمانمائة روبل ، انا .. انا لا اعرف . ولم آخذ هذا المبلغ ؟..

ـ انني لا اسألك ثمانمائة روبل . انك لا تملكين نقوداً ، وانا لا اريد ولا اقبل نقودك ولكنني اسألك شيئاً آخر ان الرجال يقدمون عادة للنساء امثالك هدايا ذات قيمة . ردي الي الهدايا التي منحها زوجي لك .

فصاحت باشا في صوت منتحب قائلة :

ـ سيدتي .. انه لم يقدم لي هدية من أي نوع .

ـ إذن فأين ذهبت نقوده ؟ لقد بدد ماله ومالي ومال الآخرين؟ أين ذهب كل هذا ؟ استمعي . انني ارجوك ، لقد ذهب بي الغضب بعيداً ولفبتك باسوأ النعوت ، ولكنني اعتذر . انك تكرهينني ويجب ان يكون ذلك .. انني اضرع اليك ان تردي الي تلك الاشياء !.

وهزت باشا كتفيها هزة العليم ، أو من يدعي الفهم وقالت : آه .. لقد كنت افعل ما تريدين مع بالغ سروري ، ولكن يشهد الله من انه لم يقدم لي اية هدية من اي نوع كما قلت لك . صدقيني وثقي بصفاء ضميري ..

ولكنها عادت تقول :

ومع ذلك فانه قدم لي هديتين تافهتين سأرجعها اليك الآن اذا شئتِ .

وجذبت احد ادراج خزانتها القريبة منها ، ثم استخرجت منه اسورة جوفاء وخاتماً ذا حجر من الياقوت ، وقالت وهي تقدمها للسيدة :

ـ ها هما يا سيدتي .

فألقت السيدة نظرة على يد الغانية وهي تقدم هاتين الهديتين التافهتين ، واحمر وجهها غضباً ، وشعرت انها اهينت اهانة كبيرة .

ـ ماذا تعطيني ؟ انني لا اطلب احساناً ، ولكن اطلب ما لا يخصك .. ما اخذته استغلالاً ونهباً وسلباً من زوجي .. ذلك الرجل الضعيف الارادة الحقير النفس . يوم الخميس الماضي ، عندما رأيتك مع زوجي على شاطىء البحر كنتِ تتزينين بسوارين كبيرتين وعقداً ثميناً .. لا فائدة اذن من تمثيل دور الحمل البريء امامي . انني اسألك للمرة الاخيرة ، هل انت معيدة الي الاشياء . أم لا ؟..

ـ انك غريبة الاطوار يا سيدتي . انك غريبة الاطوار . . . اقسم لك واؤكد لك انه باستثناء ذلك السوار الاجوف وذلك الخاتم

الصغير لم احصل على شيء من نيقولا بتروفتش هذا . . انه لا يقدم لي الا الكعك المحلى !..

ـ الكعك المحلى .. ان الاطفال في المنزل لا يجدون ما يأكلون وانت هنا تأكلين الكعك المحلى ..

ولما لم تتلق جواباً على سؤالها ، جاست على اقرب مقعد وظلت تنظر الى الفضاء وهي تحدث نفسها :

ـ ماذا افعل ؟ اذا لم احصل على ثمانمائة روبل فانه ينتهي وانتهي انا والاطفال وتكتب علينا المذلة الى الابد . هل اقتل هذه المرأة الوضيعة أو اجثو على ركبتي امامها ؟..

وأخذت تمسح وجهها في عنف بمنديلها وهي تبكي واستمعت باشا في خلال عويل السيدة قولها لها :

ـ اضرع اليك .. انك ترين انك حطمت حياة زوجي وهدمته انقذيه . انت لا تحسين نحوه بعاطفة ، ولكن الاطفال .

وتخيلت (باشا) منظر الاطفال الصغار ، وقد وقفوا في الشارع يبكون من فرط الجوع ، فبكت هي الاخرى .

واتجهت نحو السيدة وهي تقول :

ـ ماذا استطيع ان افعل يا سيدتي ؟ تقولين انني امرأة وضيعة وانني قضيت على نيقولا بتروفتش ، وأنا اؤكد لك امام الله جـــل جلاله ، انني لم آخذ شيئاً منه .. امرأة واحدة من زميلاتي تعرف عاشقاً غنياً ... اما نحن جميعاً ، باقي الفتيات ، فانا نعيش من اليد الى الفم على الخبز والملح . . ان نيقولا بتروفتش رجـــل متعلم ولذلك رحبت بمقدمه .

ـ انني اسألك الاشياء ... اعطيني الاشياء .. انني ابكي .. انني احط من قدر نفسي واذا شئت ، فانني اسجد امامك .. اذا اردت ؟..

وما كادت « باشا » تستمع الي تلك العبارة الأخيرة حتى صرخت صرخة الفزع ومدت يديها في الهواء كمن يبعد خطراً . . احست ان تلك السيدة النحيلة الشاحبة التي عبرت عن نفسها ذلك التعبير الرائع ، الذي يشبه تعبير الغناء الموهوب على خشبة المسرح ، ستجثو حقيقة امامها وستسرغ كبرياءها وعظمتها في التراب امام فتاة من بائعات الغرام ان « باشا » لا تتصوره واذا تصورته فانها لا تطيقه .. فصاحت من اعماقها وهي تمسح دموعها :

حسناً يا سيدتي ... سأعطيك الاشياء ... سأبذل كل ما استطيع ولكن ما سوف اعطيك لم يقدمه زوجك ، بل قدمه رجال آخرون جاؤا يطلبون الحب ، وكنت اطلب الخبز . هل لك ان تعرفي هـذا يا سيدتي ؟..

وجذبت « باشا » درجاً آخر واستخرجت منه عقـــداً ماسياً وآخر من العقيق وبعض خواتم وأساور وقدمت ذلك كله للسيدة التي نظرت اليه نظرة المدقق الخبير .

وقالت « باشا » : خذيها اذا شئت ، ولكن لم آخذ شيئاً من زوجك .. خذيها وكوني انت غنية ودعي الفقر لي .

فعلت ذلك لتحول بين السيدة وبين السجود امامها . واستطردت قائلة :

ـ واذا كنت .. اذا كنت زوجته حقاً فيجب ان تحتفظي به لنفسك .. من حقي ان اقول هذا فاني لم اطلب اليه ان يجيء الي .

وعلى الرغم من دموع « باشا » المنهمرة ، فان السيدة قالت وهي تنظر الى الحلى :

ليس هذا كله عندك .. انها لا تساوي خمسمائة روبل .

وعادت « باشا » الى جذب الدرج واخرجت علبة سجاير وزراً

ذهبياً وقدمتها للسيدة وهي تقول : لم يبق لدي شيء . . . في استطاعتك ان تفتشي بنفسك .

وتناولت السيدة الجواهر والحلى بيدين مرتجفتين ووضعتها في منديلها ونهضت من مكانها وفي سكون ، ودون ان تنبس بكلمة واحدة مضت لا تلوي على شيء .

وفتح باب الغرفة الاخرى ودخل « كولبا كوف » وكان شاحب اللون ، بادي الاضطراب ، وكان رأسه يترنح في عصبية عنيفة كأنه ابتلع شيئاً مراً وقف في حلقه . وكانت الدموع ظاهرة في عينيه . ورأته « ياشا » فسألته في ألم بليغ :

ـ ماذا قدمت لي من الهدايا يا نيقولا ؟ ..

ـ هدايا او غير هدايا ، فإنا لا يهم الآن .

وهز رأسه في عنف وهو يقول :

ـ يا الهي . . لقد بكت امامك . . لقد تواضعت وذلت كبريائها ..

ـ اسألك ان تجيب . اي هدايا قدمت لي يا نيقولا بتروفتش ؟ ..

ـ يا الهي . . هي سيدة محترمة . . سيدة متكبرة . . عظيمة ظاهرة .. لقد كانت على وشك السجود امام بنت من بنات الهوى .. وانا الذي اوقفتها هذا الموقف .

واسند رأسه بيديه ثم اجهش في البكاء .

ـ انني لن اغفر هذا لنفسي . . لن اغفر لنفسي . . ابتعدي عني . . ابتعدي ايتها المخلوقة الوضيعة . واخذ يتمتم مبتعداً عن « ياشا » وهو يبعدها عنه بذراعين ترتجفان .

ـ كانت على وشك السجود امامها .. امامك .. امامك انت .
يا إله السموات !.

وارتدي ملابسه في سرعة ثم دفع « باشا » عنه ، وخرج مسرعاً كالمسوع بسموم الافاعي .

وارتمت « باشا » على احد المقاعد ، وراحت تبكي بصوت مرتفع ، انها تبكي اشياءها الضائعة مع كبريائها .. وهمست بألم وأسى : ما اهبط الثمن ! ثمن الحب والخبز .

- ١٣ -

الطائرون

عن ميخائيل زوشنكو

انقضت ثلاثة اعوام بطولها لم يسمع في خلالها « توماس هوكوف » بأية أخبار عن والده ، وعلى غير انتظار وصلته حوالة بريدية بمبلغ خمسة روبلات مرسلة اليه من والده المقيم في موسكو .

تناول توماس الحوالة بين يديه واخذ يميزها وقد جالت برأسه الخواطر حول مضمونها ، وراح يحدث نفسه :

ـ عظيم جداً يا توماس .. ان والداً غير والدي المكان قد ارسل الى والده ثلاثة روبلات وقد كان يظن ذلك الوالد المغرور ان ولده ارسل اليه مبلغاً هائلاً . اما والدي فقد ارسل لي ما قيمته خمسة روبلات ، خمسة روبلات كاملة .. ماذا يحدث بحق الشيطان لو صرفت منها روبلاً او اثنين في شرب الفودكا ؟ ..

ونام توماس بحمام بديع ، ثم ارتدى قميصاً نظيفاً وسكب في حلقه نصف زجاجة من الفودكا ، ثم ركب عربته واتجه نحو مركز البريد .

وفي الطريق كان توماس يحدث نفسه :

ـ تصور ! تخيل ، خمسة روبلات ، خمسة روبلات كاملة .

فكر ماذا حدث في الدنيا . لقد انقضى عهد القياصرة ، وذهب الى غير ما عودة .. لقد اصبح الفلاح بعد اليوم رجلاً موفور الكرامة ذا سطوه وقوة وكلمة مسموعة . الآن فقط .. الآن فقـــط ومن يدري ربما كان ولدي الآن احد حكام المدينة والا لما القى بخمسة روبلات الى والده دفعة واحدة . دفعة واحدة يا ناس !.. ولكن من يدري ايضاً قد يكون ما يقال عن سطوة الفلاح غـــير صحيح ولا ينطبق على الواقع ، ماذا يحدث لو كان كل ما قيل عن الفلاح مجرد اكاذيب !..

ربما كان ولدي خادماً في فندق او شيئاً قريباً من هذا .

ووصل توماس الي مكتب البريد ، واقترب من نافذة خزينـــة الدائرة ، حيث قدم حوالته الى الكاتب وهو يقول :

ـ دراهم ؟ دراهم . نقود . . اموال . يجب ان احصل على اموال ارسلها اليّ ولدي لاستلمها من هذا المكان .

فتناول الكاتب الحوالة وبحث في سجله قليلاً ، ثم قدم لتوماس ورقة مالية واحدة من فئة الخمسة روبلات فتناولها توماس في سرعة وراح يقلبها بين يديه ويتميز خطوطها ورسومها وهو يقول : تماماً !. ولكن أليس هناك خطاب من ولدي ؟.

فلم يحر الكاتب اى جواب ، بل ترك مكانه واتجه الى داخـل المكتب .

وراح توماس يفكر ثم قال بصوت مسموع :

ـ ليس من تحرير ، ولكن ربما كتب إلي فيما بعد ، ان الانسان ليستطيع ان ينتظر تحريراً وهو مطمئن ما دام يملك مثل هذه الثروة بين يديه .

وقرب توماس الورقة المالية من وجهه وعاد يتأملهـا في دهشة

واستغراب ، وما كاد يفعل هذا حتى عاد الى النافذة يضربها بيده في عنف وهو يصيح :

ـ هيه ! يا عم ، اي فئة من النقود اعطيتني .. انظر !..

فاجاب الكاتب في حيرة : اي فئة من النقود ؟..

انها من فئة الخمسة روبلات . انها نقود . . . نقود جديدة بطبيعة الحال ..

ـ نقود جديدة ؟ قد تكون نقوداً مزورة . . ربما حدثتك نفسك ان بامكانك خداع رجل شرب قليلا من الفودكا ! . . هه .. والقى توماس نظرة اخرى على الورقة وهو يقلبها بين يديه ويصوبها ناحية الضوء المنبعث من النافذة ثم قال :

ـ فلنتفاهم في هدوء ، صورة من هذه المرسومة على النقود ؟ انها صورة فلاح أليس كذلك ؟.. نعم انه هو الفلاح انا متأكد من ذلك تأكدي من وجودي ومن نفسي . بل اني اقسم لك بانه انه هو الفلاح . ولكن انتظر لحظة ... حسناً ... حسناً . . اذن فقد كان ما يقوله الناس صدقاً وحقاً ولم تكن اكاذيب شائعات . . . ان النقود نفسها فيها ملامح من الفلاح . . انها حقيقة اذن . لقد اصبح الفلاح ذا سطوة وذا سلطة .

ثم عاد الى النافذة وهو يقول :

ـ يا عم معذرة ولا تؤاخذني .. صورة من هذه التي ترى على النقود ؟..

فاجابه الصراف متذمراً بقوله :

ـ انصرف ايها الرجل .. لقد استلمت نقودك فانصرف الآن .. عم تتكلم ؟.. واية صورة تقصد ؟ اين هي تلك الصورة ؟..

ـ على الورقة المالية .

فنظر الصراف الى الفلاح في غيظ وهو يقول :

ـ انها صورة الفلاح .. انت .. جلالتك مصور على ورقة النقد في مكان القيصر .

ـ صورة الفلاح ؟ مكان القيصر !.. هذا جميل .. جميل جداً . هيه يا عم هكذا تسير الامور اذن ، قبحاً لي ما اجهلني .. أتسير الامور هكذا ولا ادري ، الفلاح في مكان القيصر واني لا ازال مستغرقاً في خدمة الحقل وحرث الارض .. ان فلاحي قريتنا لا يعرفون قيمة ما وصلوا اليه وهم مستغرقون كذلك في فلاحة الارض وحرثها ليؤمنوا الخبز .. هيه يا عم .. أتعلم ما هو الخبز ؟.. انه الخبز !..

وضحك الصراف ، ولكن توماس عاد يقول :

ـ انها عدالة الله .. لا استطيع ان ادعي انني لم اسمع شيئاً عن الموضوع من قبل ، فلقد سمعت قبل الآن اقوالاً على افواه بعض الناس تزعم ان الفلاح وصل الى الحكم والى السطوة والسلطان وان كثيراً من علامات الاحترام تقدم اليه من الجميع ، ولكني لم اكن اظن ان التنفيذ سهل كالقول . وكنت اجد صعوبة في الحكم على ما اسمع . هل هو حق أو هو كذب . ولكن في حالة وجود صورة الفلاح على ورقة النقد .. معناه : ان ما قالوا لم يكن محض كذب.

وعاد الصراف يقول :

ـ من الخير ان تذهب الآن . انك تعرقل اعمال الناس هنا .

ـ الآن دعني امتع الطرف بالورقة التي تحمل صورة الفلاح . . اقسم لك يا عم اني لم احب الفياصرة كما احببتهم الآن .. انها عدالة الله .. عدالة الله ..

ولكن الصراف لم يجب على هذا القول ولم يعلق عليه بعبارات الاعجاب كما كان ينتظر ، فنظر اليه العم توماس نظرة يأس وخرج من المكان .

وعاد الى التفكير ، والى التحدث الى نفسه :

ـ فكر في هذا يا توماس .. صورة الفلاح على اوراق النقد !. التشريفات الملكية للفلاح !..

واستقل عربته الخشبية الصغيرة ، ثم الهب ظهر جواده بضربة من سوطه ، ولكنه ما كاد يصل الى اطراف الغابة حتى دار بعربته دورة كاملة عائداً الى المدينة .

وظل سائراً الى ان توقف عند محطة السكة الحديدية ، فهبط من العربة ، وربط الجواد عند سورها .

وكانت غرفة الانتظار خالية ، وكان على بابها رجل ذو قبعة سلساء قد استسلم للنوم على مقعد خشبي واسند رأسه الى كيس من الخيش مملوء بالحنطة .

وابتاع توماس قليلا من الفستق وجلس يأكله الى جوار النافذة وبعد دقيقة أو دقيقتين نهض من مكانه واتجه قاصداً الى الرجل النائم ثم صاح به قائلا :

ـ هيه .. ايها القبعة .. انهض وافسح لي مكاناً على المقعد اريد ان اجلس الى جوارك .

وفتح الرجل ذو القبعة السلساء عينيه ونظر الى توماس كالمشدوه واعتدل في جلسته ثم تثاءب وبصق على الارض ، وبدأ يلف سيجارة ..

وجلس توماس الى جانبه وهو يدفع كيسه في عنف بينه الخشن ينفث قشر الفستق في احتقار .. كان يفكر بينه وبين نفسه :

ـ انهم لا يقولون كذباً .. ان الجميع يحترمون الفلاح .. انهم يستمعون الى الفلاح . في الايام الغابرة ربما ضربني رجل في وجهي لغير سبب .. اما الآن فانهم جميعاً يقدمون لي الطاعة . انهم يخشونني انهم يخافونني .. فكر في هذا يا توماس .. فكر كيف حدث كل

هذا في هدوء ، حتى انني لم الاحظ ولم ادرك كيف حدث .

ونهض توماس من مكانه على المقعد وذرع غرفة الانتظار في عظمة واطمئنان وفي رضاء . ثم خرج متجهاً الى نافذة بيع التذاكر .

قال بائع التذاكر : الى أين ؟..

ـ ماذا تقول ؟..

ـ الى أين تريد التذكرة أيها الاحمق ؟..

ـ أريد ان القي نظرة داخل المكان الذي تباع فيه التذاكر لأرى ماذا يشبه .. هل استطيع ان افعل ذلك ؟..

ـ اذا كنت لا تريد ابتياع تذكرة فلا داعي لالقاء اوساخك في الداخل .

ـ أوساخ ! من أنت حتى توجه إليّ مثل هذا الكلام ؟..

فصاح الكاتب غضباً :

ـ انت مجنون سكران .. من انت حتى تلقي نظرة داخل مكاني ؟..

فانحنى توماس نحو النافذة ، وبصق فجأة في وجه الكاتب ، ثم اتجه مسرعاً الى غرفة الانتظار .

وقبضوا عليه بينما كان يحل وثاق جواده ، وحملوه في قسوة الى غرفة الضابط في مخفر الدرك .

وهناك كانت ثائرته قد هدأت قليلاً ، فحاول ان يشرح موقفه بعبارة من هنا ، أو عبارة من هناك ، وكان يحرك يديه حوله وهو يتكلم ، ثم تناول الورقة النقدية ذات الخمسة روبلات من قبعته ، وطلب من ضابط الدرك ان يلقي عليها نظره ويتيزها . ولكن الضابط كان يغمس ريشته بين لحظة واخرى في المحبرة ، اذ كان يكتب تقريراً عن توماس هوكوف الذي اعتدى وأهان بالقول والاشارة شخص كاتب السكة الحديدية اثناء قيامه بأعمال الوظيفة ، واضاف الضابط

على ذلك ان توماس هوكوف كان في حالة سكر شديد ، وانه كان يأكل « الفستق » في غرفة الانتظار في « المحطة العمومية » وكان يرمي القشر على الارض .

ووضع توماس صليباً في نهاية التقرير ، اذ لم يكن يعرف كيف يوقع امضاءه ، وخرج من المكان وهو يتهدد ويهز برأسه ، وحمل وثاق جواده ، ثم استطى العربة الخشبية الصغيرة وأخرج الورقة المالية من قبعته وحدق بنظاره اليها لبضع دقائق ، ثم لوح بيده في احتقار وهو يقول :

ـ انهم شياطين كاذبون ، ولا يزال الفلاح بحاجة الى السعي وراء الخبز !..

وألهب ظهر جواده بسوطه .. وعاد الى قريته .

تمت

نبيل كرامه

فهرس القصص

	القصة	الكاتب	رقم الصفحة
١	حب اقوى من الموت	لمكسيم جوركي	٥
٢	بطولة طفل	〃 〃	١٦
٣	بشر لا يودون الحياة	〃 〃	٢٤
٤	ألم دفين	〃 〃	٣٥
٥	وراء الخبز	〃 〃	٤٢
٦	هذا هو الحب	لالكسندر بوشكين	٥٤
٧	المال	〃 〃	٦٢
٨	رمل الحياة وزبدها	〃 〃	٧١
٩	في المنفى	لتولستوى	٧٩
١٠	المستكشف العظيم	لاليا الفا وايفجيني بتروف	٩٠
١١	الحب والخبز	لتشيخوف	١٠١
١٢	الكاذبون	لميشيل زوشنكو	١١١

صدر اخيراً عن دار الاهرام بحلب

درب الهوى

احدث قصة عاطفية كتبها الأديب العاطفي المعروف

الاستاذ نبيل كرامة

درب الهوى : أجمل قصة من قصص الغرام الجامح الذي تعترضه تقاليد المجتمع

» » قصة السعادة التي لا يكاد يجدها الانسان حتى يحطمها الناس

» » قصة الامومة الصادقة ، والحنان المستعر

» » قصة كل فتاة أو كل فتى سار على درب الهوى غير هياب بمسالكها الشائكة ، واطبق على النار باصابع غير مرتجفة ، وحدق بالنور بعيون غير مرتعشة

» » القصة التي تفخر بنشرها وتوزيعها دار الاهرام لأنحاء العالم العربي

اطلبوها من عموم المكاتب العربية ومن مكتبة الاهرام حلب ـ تجاه سينما دنيا ـ هاتف : ١٣٣٥٦

الثمن ١٥٠ غ . س

منشورات

دار الاهرام

للطباعة والنشر والتوزيع والدعاية

لصاحبها

جورج صباغ و ميشيل ماروني

حلب ـ شارع القوتلي ـ تجاه سينما دنيا ـ هاتف ١٣٣٥٦

صدرت اخيراً عن دار الاهرام بحلب
التحفة الانسانية الاجتماعية الرائعة

غرام لقيطة

بقلم الأديب اللبناني العاطفي المعروف

ارستاذ نبيل كرامة

غرام لقيطة : ختام قصة درب الهوى ، الدرب التي خطت مسالكها السماء وسار عليها سائر البشر .

» » قصة غرام عنيف سام ارفع من حدود السماء

» » قصة ام حائرة تبحث عن ثمرة احشائها بعد ان تخلت عنها في لحظات مجونها واغرائها .

» » قصة اب قانوني يدوس الشرع الذي بين يديه .

» » قصة سرّ لا يعرف مولده غير قلب راهبة عذراء يغلّ انعتاقه وكشف ستره « سر الاعتراف المقدس »

» » قصة حقيقية جرت حوادثها على سفح جبل صنين ، وبين جمال الطبيعة الاخاذ .

» » قصة ليست ككل قصة ، لا يقدّر وصفها الا من يقرأها . ستتعجبون لأسلوبها اللابق ، ولمعالجة فصولهـــا الرائعة ، فتحتفظون بها وتنصحون اصدقاءكم باقتنائها .

اطلبوها من مكتبة الاهرام بحلب تجاه سينما دنيا هاتف ١٣٣٥٦

لصاحبها السيد جورج صباغ ومن عموم المكاتب العربية

الثمن ١٠٠ غ . س